بوجن أولسومر

ترجمه وعلّق عليه:
الدكتور محمد محفل

سلافنا العرب

9
Bibliotheca Alexandrina
0205368

أسلافنا العرب

بُوجن أولسُومِر

أسلافنا العرب

ترجمه وعلّق عليه:
الدكتور محمّد محفل

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٥

العنوان الأصلي للكتاب:

BOJEN
OLSOMMER

NOS ANCÊTRES LES SARRASINS

AVANT-PROPOS
DE
MAURICE CHAPPAZ

صدر الكتاب بالفرنسية في سويسرة (لوزان) ١٩٨١

أسلافنا العرب = Nos ancêtres les Sarrasins
بوجن أولسومر؛ ترجمه وعلق عليه محمد محفل . - دمشق :
وزارة الثقافة ، ١٩٩٥ . - ١٢٥ ص : مص؛ ٢٤ سم

مقدمة: موريس شيبا .

١- ٩٤٠ ر ١   أ و ل أ   ٢- ٩٥٦,٠٧ أ و ل أ
٣- العنوان   ٤- العنوان الموازي   ٥- أولسومر   ٦- محفل
مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع - ٩٨٦/ ٦ / ١٩٩٥

لمحة عن حياة الكاتب

وُلِد بُوْجن أولسومر في الفاليه، عام ١٩١٥، من أب سويسري من مدينة نُوشَاتل وأم سلافية. درس الحقوق وعمل في الصحافة. كتب عدة تحقيقات (ريبورتاجات) صحفية، تناول فيها الأوضاع في بعض دول البلقان وايران الخ. . . عاد إلى مسقط رأسه سويسرة، حيث ترأس غرفة التجارة في الفاليه، من عام ١٩٤٧ حتى ١٩٥٩، كما ساهم في أنشطة عدة منظمات مهنية لمقاطعة الفاليه، مثابراً على عمله الصحفي كرئيس تحرير مجلة «**النجوم الثلاثة عشر**»، من عام ١٩٥٥ لعام ١٩٦٩. كتب مذكرات عن رحلاته، منها «**العودة من بلغارية**» و«**محطة في تونس**»، وقصصاً «**الرتيلاء الحمراء**»، كما روى قصة المقاومة في أدغال ليغورية، التي قادها أحد أبناء الفاليه، الكولونيل (العقيد) رامون، وأصدر مؤخراً كتاباً بهذا الصدد.

هذا الكتاب

قال بعضهم ان الدم العربي يسيل في عروق أهل الفاليه السويسرية، وأضاف آخرون: يظهر ذلك جلياً في بعض ملامح سحنة سكانها وفي حدّة طباعهم. ثم يأتي كاتبنا ليؤكد الأمر، بعد أن صرف وقتاً طويلاً في جمع الشواهد ودراستها ونقدها، منطلقاً من التنقيب في وثائق قديمة مهملة، ثم راح يطرح الأسئلة تباعاً، موضحاً بعض النقاط الغامضة: كـ«نصر بواتية الحاسم» المزعوم، وشخصية شارل مارتل المشكوك في دورها وأهميتها. ثم تطرّق إلى مكانة واستمرار الوجود العربي في أوربة القروسطية، من القرن الثامن حتى العاشر، مع مقارنة خاطفة لمجتمعين متجاورين متزامنين: الأندلس وحضارتها الزاهية والعالم الفرنجي المتخلّف. أما روايته عن مغاوير الفراكسينة، الذين فرضوا وجودهم في بعض مناطق فرنسة وسويسرة وإيطالية، فهي نزهة في الماضي البعيد، وهي طرفة هذا الكتاب. كتاب جديد وجاد ويستحق عناء القراءة، وفيه وثائق جديدة يجهلها الباحثون من عربٍ وغيرهم. إنها شهادة نزيهة لصالح الحضارة العربية، جاءت على لسان إنسانٍ منصف، لم يتردّد في القول: «لنا الفخر أن يكون العرب في عداد أسلافنا»...

هكذا، في زمن يشكّك بعض «المستعربة» بتاريخنا القومي.

تنبيه المترجم

عندما طرحت عليّ (دائرة الترجمة في وزارة الثقافة) فكرة ترجمة كتابنا هذا، قرأته مرةً وثانيةً. في المرّة الأولى، قراءة الدهشة والفضول، فعنوان الكتاب، بحد ذاته، أحجية: فالكاتب سويسري الأصل ويختار عنواناً عجيباً لدراسته «أسلافنا: العرب». شرعت القراءة الثانية، معيراً انتباهي للشاردة والواردة، محاولاً ترجمة سريعة لبعض المقاطع، فأدركت صعوبة المهمة، وأنهيت القراءة الثانية، لأقول لهم: إنه السهل الممتنع وأوضحت الأسباب.

يشكّل أسلوب الكتاب مزيجاً من الكتابة الصحفية المجادلة مع الرواية التاريخية ثم العرض الدقيق لوثائق قديمة، محدودة الانتشار، يرقى بعضها أصلاً إلى العصر الوسيط والآخر لعصر اللغة الرَوْمَنيَّة (المشتقة من اللاتينية)، وإضافةً لكل ذلك البلبلة والاضطراب في الأسماء العربية والتواريخ، كما سيلاحظ القارىء الكريم. فمثلاً يجري الحديث عن أسماء قوّاد عرب، في عصر بواتية، فيطرحها علينا الكاتب كما جاءت في الوثائق اللاتينية القروسطية، دون تحقيقها. فمن أين لنا أن نعرف أن (زاما) هو «السمح بن مالك الخولاني» أو أن (آثيم) ليس سوى «الهيثم بن عُبَيْد الكلابي»، والاثنان من ولاة الأندلس، قبل ظهور عبد الرحمن الداخل (صقر قريش). وعندما يستشهد الكاتب بالجغرافي العربي (ابن حوقل)، لم نترجم أقواله، بل آثرنا الرجوع إلى الأصل العربي في كتاب «**صورة الأرض**».

ومع تسليمنا بأن الكاتب بذل جهوداً لاتُنْكرُ في تدقيق تسلسل الوقائع وتحقيق بعض الأسماء، كالتمييز بين عبد الرحمن الغافقي وعبد الرحمن الداخل ثم عبد الرّحمن الثالث الناصر، أميز فخليفة قرطبة، في القرن العاشر، وهذا ما لم يفعله الآخرون من الغربيين، أوضحنا أن نقل الكتاب كما هو إلى القارىء العربي، فيه مجازفة، ولابدّ لنا من انجاز عمليتين متكاملتين: الترجمة أولاً، ثم تحقيق النص باغنائه بالشرح الهامشي. وهكذا كان.

ولعب موضوع الدراسة دوره في التغلبُ على الصعوبات. فمن ناحية، صلته بتاريخنا القومي المشوه، في أذهان بعض الأوساط الغربية، ومن عاش في الغرب، يدرك مغزى كلامي. ويأتي الكتاب بالرد الصاعق على ذلك، باعتماد المؤلف على وثائق جديدة/ قديمة مهملة.

كما أننا نعترف بأن معرفتنا بالمناطق والبقاع التي كانت مسرح حوادث ووقائع الرواية، قد حمستنا وسهّلت علينا المهمة.

نقلنا الكتاب الى العربية بأمانة، وعندما خالفنا الكاتب في رأيه، لجأنا إلى الهامش للتوضيح.

ونلفت انتباه القارىء الكريم إلى الهوامش. فمنها موجود في النص الأصلي، وحينئذ نضع في نهاية الهامش، بين قوسين (المؤلف). أما ما عدا ذلك، فنحن مسؤولون عنه وأشرنا إليه بحرفي (م. م.)بين قوسين. ولجأنا إلى العلامات النجمية لشرح كلمة أو موقع ما، بينما احتفظنا بالأرقام لسيرة الرجال وغيرهما.

الكتاب جديد وجاد ويستحق عناء القراءة، ولن يندم القارىء الكريم على ضياع الوقت لقراءته بل لدراسته.

يستحق كاتبناكل شكرنا وعظيم عرفاننا. وعسى أن نكون أدينا المهمة بأمانة، وكذلك لوزارة الثقافة التي منحتنا الثقة، لنقل هذه الدراسة الممتعة إلى القارىء العربي.

الدكتور محمد محفل

دمشق في ٢/ ٣/ ١٩٩٥

مقدمة

- ولكنك حقاً موري[1]، يا صديقي، أما أنتِ، فعربية[2]، يا سيدة صهيون[3] النبيلة.

وسيعمل بُوْجن أولسُومِر على اثبات ذلك، أو بالأحرى سيقصّ عليكم الحكاية بأسلوب متقدٍ وطريف جداً وفي غاية الذكاء. ولمقاطعة الفاليْه[4] نكهتها المشرقية والأندلسية. ليس فقط في مشاهدها الطبيعية ولكن أيضاً في نسبها العرقي.

وفي نفس الوقت، يشدنا الكاتب، بإثارته الدلائل الحيّة، إلى الروائى (رامو دو لِنْس)، الذي أعلن في أمسية عيدٍ، عام ١٩٠٧: «يا لغرابة هذه المنطقة بصميمها القاسي وبروعته أديمها». ولايغفل عن ذكر (سَنْغِريَا) الذي

---

(١) موري: اسم أطلقه الكتاب الكلاسيكيون (الاغريق والرومان) اعتباراً من القرن الأول (ق.م.) على سكان المغرب الأوسط والأقصى (لاسيما الجزائر)، نسبة إلى موريتانية؛ وفي العصر الوسيط، أطلقه الأوروبيون الغربيون على المسلمين المغاربة من أصلٍ أفريقي (في رأيهم). (م.م.)

(٢) الكلمة في النص الأصلي Sarrasine، من الأصل اللاتيني Sarraceni وهو الاسم الذي أطلقه الكتاب الكلاسيكيون على سكان الجزيرة العربية، وفي العصر الوسيط، أطلقه الأوروبيون الغربيون على العرب المسلمين في الأندلس والمغرب وجزيرة صقلية وفي بعض أنحاء فرنسة الجنوبية. (م.م)

(٣) (٤) عاصمة مقاطعة فاليه Valais السويسرية، في الحوض الأعلى لنهر الرون، الذي ينبع في جبال الألب السويسرية، قبل أن يسيل في فرنسة ليصب في البحر الأبيض المتوسط. وأصل الاسم كما نعلم من جبل صهيون في ضواحي القدس، والاسم كنعاني وليس عبرياً كما يعتقد البعض. (م.م.)

هتف وهو في طريقه «إلى (سيير)[1] : «وكان الخمر، في الأصل، أثيرياً وعربياً، و كذلك مقاطعة الفاليه، و هي ليست ريفية، كما يحلو لهم تكرار ذلك القول الذي يرهقنا»

ينطلق كاتبنا من قسماتنا الأكثر جلاءً إلى أصولنا الأكثر اختلاطاً، أما دراسته . . . فهي إحياء أصيل وحكاية تضارع وقائع الحوليات الشائقة . . . إنها تعبير عن أسلوب بوجن أُولْسُومْرِ العذب وسخريته اللاذعة .

موريس شَبّا

(١) محطة للاستجمام في مقاطعة الفاليه السويسرية، على الضفة اليمنى لنهر الرون. (م. م.)

المدخل

تشكّل الفالية إحدى المقاطعات السويسرية الأكثر حساسية. فجذورها النادرة، وبعضها ظاهر، كتلك الطحالب المنعقدة على الصخر، والآخر دفين ولكنه من أديمٍ واحد، وتعطيها حيويةً، مقلقة للنزعة المحافظة السويسرية.

لاندري! هل نسيء إلى بعض مواطنينا ذوي السحنة السمراء والشعر الكث والطبع الصراح عندما نذكّرهم. بمحتدهم المحتمل؟ كلا! بل العكس، فيجب أن يفخروا بذلك. فقد يكون لأجدادهم الموريين، خاصة، الفضل في تكوين مقاطعتنا، أي بلاد متميزة بخاصيتها.

وقد يقولون بأن هذا لن يعلّل الأمر كلياً: فكم من دماءٍ امتزجت في مفرق الطرق هذا، هذا صحيح، ولكن لن يعلّل سلوك تجمّعات بشرية بأسرها سوى هيمنات معينة.

أما أولئك الموريون. فمن هم؟ وما هي سيرتهم؟ بالنسبة لمجموعة الصور التي خلّفها العصر الوسيط عنهم، بعد مراجعتها وتصحيحها من قبل الكتاب المحدثين، فهي ذات زيغ. ولا تقتصر القصة على تراكم لغوٍ تاريخي موسومٍ بالتعصب المسيحي (الغربي) ولكن الأمر هو أكثر رسوخاً ليجعلنا قلقي الرقاد. ولم تكن الأمهات تخيف صغارهن مهددةً بالعسكر، بل كانت تصيح عليهم: حذارِ! سيأتي الموري لخطفك! فكمن منذ ذلك الوقت في شعورنا الخلفي قلق ورع رعاه تعليمنا الابتدائي.

إن التاريخ ليس ميدان اختصاصي، كما انعدمت فرص ترددي على المكتبات. ولكن، هل من الضروري أن يكون المرء كاتباً بارعاً للكشف عن الأكاذيب المحفوظة بدقةٍ في مؤلّفاتنا؟ يكفينا أن نعيد النظر في بعض كتبنا

الصفراء ونقارن الوقائع والتواريخ ثم نتفكّر قليلاً في الأمر. لا أطمح إلى الأكاديمية في عملي هذا، بل إنّي أحكّم المعارضين الفتيان، الذين يتحرقون شوقاً للاصلاحات. أقول، لماذا لانبدأ باصلاح مؤلفاتنا التاريخية؟ وكم سيكون رائعاً ميدان اصلاح كهذا؟

ولكني أمل أن أبحث ذات يومٍ في محاكمات الساحرات. ولكن القسم الأكبر من تلك المحاكمات قد كُشِفَ الغطاء عنه وطويت صفحاته. أما دعوى الموريين فما زالت بلا حل.

لقد تصفحت موجز التاريخ لحفيدي، لأعثر على شارلمان «الكبير» منتصباً في ذاكرتي إلى جانب الملوك المجوس مع نصب موسى للفنان ميكائيل انجلو. . . فما زالت صورته هي هي. . ولكنها راحت تبدو لي بلية وتافهة. فتساءلت: هل ان الكاتب المسرحي، النابغة والمثقف، جان آنوي، جعلني أراها بهذا الشكل، وهو الذي عرض علينا شخصية مغايرة في مسرحيته (الشاب والأسد) المنقولة بالتلفاز، حيث بدا شارلمان أمياً، بذيئاً وسفّاحاً.

ومع ذلك، فلدينا توجيهات شارلمان السامية[1]. نعم! نحن لاننكر ذلك. . . ولكن، لا أدري! لماذا يتراءى فوراً أمامي الطبيبان، وقد خرجا تواً من العيادة، حيث أجريا عملية جراحية - نجد المشهد في نسخة سينمائية قديمة لمسرحية «**الدكتور كنوك**» (للكاتب الفرنسي جول رومان م.م.)- وأحدهما يهنىء الاخر: لقد كنت رائعاً بمعالجة المعي الغليظ». . . والمعروف أن المريض قد مات بعدئذٍ كشأن الأمبراطورية الكارولنجية[2] بعد غياب شارلمان.

---

(١) وهي الأوامر والتنظيمات التي أصدرها شارلمان لإرساء أسس راسخة لأمبراطوريته ولم يلبث أن تلاشى مفعولها بعد موته. (م.م)

(٢) نسبة إلى كارلوس مغنوس، وهو اسم شارلمان اللاتيني. وقد أعقبت هذه الأمبراطورية، دولة الميرفنجيين، وعاصرت الخلافة العبّاسية لفترات، لاسيّما في عصر شارلمان والرشيد. (م.م.)

عثرت على «**تاريخ بورغونية**»[١] لدِلْبِن، كما طالعت «**بلدانية بُرُوفنسة**»، المطبوع (عام ١٦٦٤)، لأحد الكتّاب: أونُورِه بُوْشِهْ، وهو دكتور في اللاهوت، وقد ذكرت بعض عيّنات هذا المصنّف الرديء، وقرأت أيضاً «**تاريخ بروفنسة العام**» لبَابُوْن، المطبوع (عام ١٧٧٨)، وهو أكثر جزالة مما سبق، وكاتبه من الرهبان.

بهذا الملفّ المحدود إضافة للشواهد المقمّشة من مجموعة التصانيف في دير القديس برنار الكبير، المنسوبة للبولنديين[٢]، - ولابدّ هنا من شكر الرهبان الذين يسّروا مهمتي، أثناء زيارتي الدير، وكذلك موريس شبّا، صاحب الفكرة- شرعت في عملي هذا «رد الاعتبار للموريين».

ولكنني لم أكتف بذلك. إذ زرعت ذهاباً وإياباً مجاز صحن مسجد قرطبة الكبير، وطفت أزقة الحي- المتحف المجاور، وكذلك أرصفة ميناء المرية (على الساحل الجنوبي الشرقي للأندلس م.م.) ثم زرت منطقة فراكسينة[٣] Le Fraxinet حيث قضيت عدّة ليالٍ في فندق، في موقع غَارْدفرِنَة La Garde-Freinet وأؤكد لكم، بأنني عندما كنت أنصت لرياح المَسْترَال (ريح شمالية عنيفة باردة وجافة تهبّ على المقاطعات الفرنسية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط م.م)، أحسست بـ«الهول الروحاني» الذي وقى، لأجلٍ طويل، جبل كلال[٤]: وبذلك أدركت مباشرةً تمام مغزى

---

(١) نسبة إلى البورغونديين الجرمان. ولاية فرنسية حالياً، حاضرتها مدينة (ديجون)، على بعد (٣١٠ كم) جنوب شرقي باريس. لعبت هذه المملكة دوراً خطيراً في العصر الوسيط، قبل أن يتمكن ملوك فرنسة من اخضاعها نهائياً في نهاية القرن الخامس عشر. (م.م.)

(٢) نسبة إلى اليسوعي «جان بُولَنْدوس ١٥٩٦- ١٦٦٥». اشتهر أعضاء هذه الجمعية بدراسة سير القديسين بمقتضى منهج تاريخي نقدي. (م.م.)

(٣) موقع يشرف على خليج سان تروبه، جنوبي شرقي فرنسة، اتخذه العرب قاعدة للاغارة على بعض المناطق السويسرية والفرنسية والإيطالية. (م.م.)

(٤) نجد حصناً من حصون حمير في اليمن باسم كلالي (انظر مادة كلالي في **معجم البلدان** لياقوت). (م.م.)

أسطورة «أبواق اريحا»[1]. حلمت ملياً في الليالي المقمرة، في دارٍ في بور-غريمو (ميناء في قعر خليج سان تروبه م.م.) تهزّه الرياح أيضاً، ومقابلي سان ت: وبه (موقع سياحي جنوبي فرنسة على البحر الأبيض المتوسط م.م.) بأنواره المتلألئة، التي كانت ترتجف في الجانب الآخر للخليج، حلمت بالزوارق التي أحرقتها النار اليونانية (مُركّب ملهب يظلّ مشتعلاً حتى بملامسة الماء م.م.).

وها هي نتائج دراستي. وأرجو المعذرة لإضافتي إلى السياق التاريخي - المشوّش والمتنازع فيه أصلاً- بعض الملاحظات الذاتية. فأنا ابن فنان رسّام، فإن خاب سعيي، فمرحى لنقدكم.

---

(١) يشير الكاتب هنا إلى الأسطورة التي جاء ذكرها في **سفر يشوع** (الاصحاح السادس، ١٥-٢١) عندما حاصر قوم يشوع مدينة أريحا الكنعانية سبعة أيام وراحوا يطوفون حول أسوارها المنيعة، وفي اليوم السابع نفخ الكهنة في الأبواق سبع مرات والمحاصرون يهتفون هتافاً شديداً، فسقطت الأسوار في مكانها، فاجتاح قوم يشوع المدينة وقتلوا كلّ من فيها من إنسانٍ وحيوان. (م.م.).

الفصل الأول

في أيّ جانب كان البرابرة

أصل التسمية

سَاراكِنُس[1]! اسمكم هذا الذائع الصيت، والذي جاء ذكره سابقاً في كتابات بطليموس[2] وبلينِيوس[3] وسترابون[4] إشارة إلى أقوام بلاد العرب الصخرية...

حقاً، فما هو أصل لقبكم هذا؟ هل هو مشتق من سرّاكة، إحدى حواضركم المنسيّة؟ أو من «سَرَقَ» بمعنى «الصوصية، قطع طريق»، دون أن نعطي لهذا التعبير قسراً مفهوماً تحقيرياً، على غرار التتار الذين لم يستخدموا سوى كلمة واحدة للتعبير عن السفر على ظهر الحصان والضرب بالسيف. أو كما يقول نقفوروس[5]، إن للاسم، بمفهومه الافتتائي، علاقة بسارة (زوجة ابراهيم).

---

(١) انظر الهامش رقم (٢) في المقدمة.

(٢) عالم يوناني، من القرن الثاني للميلاد. اشتهر بمعارفه الفلكية والجغرافية والرياضية. من مؤلفاته المعروفة (**الموسوعة الجغرافية**) وكتاب (**المجسطي**)، ومعناه «الأكبر» لقبّه به القدماء تقديراً له. فيه القواعد لمعرفة اثبات الأوضاع الفلكية والأرضية بأدلتها التفصيلية. عربه عن اليونانية (حنين بن اسحاق ٨١٠- ٨٧٣ ميلادي). وُلِدَ بطليموس في صعيد مصر وتوفي قرب الاسكندرية (عام ١٦٧).

(٣) بلينيوس الأكبر (٢٣- ٧٩) من علماء الطبيعة الرومان الأقدمين. صنّف كتاب (**التاريخ الطبيعي**) ويحتوى على ٣٧ سفراً.

(٤) (٥٨؟- ق.م. -٢٨)، جغرافي يوناني، له كتاب. (**الجغرافية**)، فيه أخبار عن بلاد العرب لم يسبقه فيها غيره من المؤلفين.

(٥) نقفوروس (٧٥٨- ٨٢٩)، بطريرك القسطنطينية (٨٠٦- ٨١٥). منع تحطيم الصور فنفاه الامبراطور لاون الخامس. له كتاب عن (**تاريخ بيزنطة**) من عام ٦٠٢ وحتى ٧٦٩، إضافة لمؤلفات تبحث في عبادة الأيقونات والصور.

وفي أثناء عبوركم افريقية، بادرتم إلى إخضاع كامل السلسلة التي تطلّ على البحر الأبيض المتوسط وكذلك، في قسمٍ كبيرٍ منها على المحيط الأطلسي، وعملتم على نشر الاسلام بين البربر وكذلك بين الزنوج، ذوي الأصل الرقّي، قبل أن تستوعبوهم جميعاً . . . لقد كنتم المُنْتَظَرِين.

يطيب لنا، أن نعلّل بمبدأ الاندماج المساواتي أمر عشرائكم الذين استقرّوا في أوروبة وأطلقنا عليهم، في أكثر الأحيان، اسم الموريين.

بينما تشبّث رجال الدين باستعمال التعبير الشامل «سارانكس» ليطلقوه، بلا تمييزٍ، على كل مسلمٍ. أما الآخرون، ممن لاتشغل بالهم أمور الدين، فقد فضّلوا الاسم الروماني الذي يشير إلى الأصل الأكثر قرباً للغازي. إذ أن المجتاح، الذي تدفّق على اسبانية في عام ٧١١، مهدداً بتوسيع سلطانه إلى الجانب الآخر لجبال البرنس، إن هذا المجتاح قد انطلق من مُورِتانية (التي كانت تضم ضمن بانوراما جغرافية، شديدة الغموض، الولايات الامبراطورية الرومانية، كل الشمال الغربي الافريقي، أي الجزائر الغربية والمغرب الأقصى- ولقد طابق بعضهم بين موريتانية والمغرب، وهو أمرٌ مبالغ فيه).

إنه لغموض ملائم، حيث أن الأخبار التاريخية القروسطية ستكرّر ذكر بربارية[1] لمنطقةٍ دلّت في الأصل على وطن البربر، وبذلك اعتبروا الساراكنس برابرة، إنْ كان في المعنى الحقيقي أو المجازي.

---

(١) يحاول الكاتب أن يوضّح الغموض الذي أشاعه بعض الأوروبيين في العصر الوسيط عندما خلطوا بين (بربرية Berbe'rie)، كموطن البربر في شمال افريقية واسم (بربارية Barbarie) العالم البربري. وبما أن المسلمين- الساراكنس انطلقوا من بلاد البربر، فهم برابرة. (م. م.)

الشبح الموري(١):

وهكذا، راح الاسماعيليون- الساراكنس، بعد امتزاجهم ببربر شمال افريقية، في أثناء عبورهم إياها نحو المغرب الأقصى، وكذلك بعد اختلاطهم بالويزيقوط(٢)، الذين صادفوهم في اسبانية بعد فتحها، راح هؤلاء جميعاً يزرعون الرعب في الغرب المسيحي. وأمّا أن يكون شارل مارتل قد اعترض سبيلهم في عام ٧٣٢، بتدميره (٤٠٠ ألف) من قواتهم في معركة بواتيه(٣)، منقذاً بذلك الحضارة، فهذا الزعم هو أكبر أكذوبة في التاريخ، كما سنرى لاحقاً.

ومع ذلك، فأنا أميل إلى القول بأن أولئك الذين تدفقوا على منطقة الفاليه السويسرية، وقد استولوا على الممرات الجبلية لسلسلة جبال الألب، والذين نلاحظ في طباع سكان مناطقنا بعض سجاياهم- بل حتى أشكالهم في عدة وديان، ظلّت لأجل طويل منعزلة- فأنا ميّال إلى القول، ان أولئك المتدفقين، قد انطلقوا مباشرةً من الاسكندرية أو بالأحرى من تونس (خليفة قرطاجة والتي سقطت بيد العرب عام ٦٩٥) بعد عبورهم هضبة فراكسينة(٤).

---

(١) انظر هامش رقم (١) في المقدمة.

(٢) نعني بهم القوط الغربيين، وهم من القبائل الجرمانية التي راحت تتدفق على المناطق الغربية للامبراطورية الرومانية، اعتباراً من مطلع القرن الخامس للميلاد، قبل أن يحطّوا عصا ترحالهم في جنوب غالية (فرنسة) ومنها انحدروا إلى اسبانية، حيث بسطوا عليها سلطتهم تدريجياً (م.م)

(٣) اطلق العرب على موقع المعركة (بلاط الشهداء)، الذي يبعد (٢٠كم) إلى الشمال الشرقي من بواتية، وفيها استشهد عبد الرحمن الغافقي، وكان ذلك في عهد (هشام بن عبد الملك ٧٢٤- ٧٤٣) (م.م)

(٤) سيأتي تفصيل عن الموقع لاحقاً (م.م)

ولقد أقرّت لهجتنا اسماءهم وحفظتها : آل بدوي أو آل بدوغوي، أسماء مازالت تُطْلق حتى يومنا هذا على سكان ايْزِرابْل[1] . ثم، أليس مدهشاً، أن نجد الكرومير[2]، تلك المؤسسة ذات الدور الخطر في سياسة الفاليه، تحمل اسم منطقة جبلية في تونس.

وهل يخطر ببال أي إنسان أن ينكر كون مستودعاتنا للقمح مشادة على غرار ما نجده في استوريش، بل حتى اسم هُرْيِنا له نفس رنّة اسم هُرْي استوريش، عندما ننطقه بالاسبانية. وأتساءل بحقٍ، ما هي دلالة الأسماء التالية: سَرَيِّر، ألآلين، الجبل الموري، ووادي الموريين[3] بالقرب من بلدة إفُوْلِن . . . ثم تلك البغال التي كانت تعتبر تربيتها من مفاخر الأندلس، والتي كانت تبيعها للهواة في القارات الثلاث؟ (أوروبة، آسية، افريقية م.م.). وقنواتنا هذه، التي تستلزم مهارةً اشتهر بها العرب، وقد تعلّموا قديماً فن بنائها من الفرس[4]. وأصوات النداء الخشنة هذه بأنغامها المختلفة، والتي يتبادلها الرعاة، حتى يومنا هذا، في مراعي الفاليه الجبلية . . . هل هذه الأمور كلها، صدف مجّانية، لا أساس لها من الصحة

الأولاد المزعجون:

قد لايصدقني البعض، إن قلت إن قوم الفاليه هم صلب الضمير السويسري؛ فهم الذين يجسّدون مختلف سُنَن العصيان والمشاجرة وصلابة

---

(١) بلدة في الفاليه السويسرية. (م.م.)

(٢) يُطلق هذا الاسم على خليط من السويسريين والغجر، يعيشون في الفاليه. يعملون في صناعة السلال، والسكاكين، ويُطْلق أيضاً على أولئك الذين يعيشون على هامش المجتمع، ولايشاهدون إلا في المواسم الانتخابية، ليدلوا بصوتهم لهذا المرشح أو ذاك. (م.م.)

(٣) أسماء ذات رنّة عربية، فمثلاً (ألآلين بابدال الألف عيناً نلفظها علاّلين).

(٤) نحن لانشارك الكاتب رأيه، فمهارة العرب القدماء - قبل الاسلام وبعده- في حفر قنوات الري وصيانتها قديمة- قبل احتكاكهم بالفرس، إن كان في مصر أو العراق وبلاد الشام واليمن (م.م.)

الرأي والجسارة والحزم. ويشكّل هؤلاء عشيرة متميزة بمحتدها وسيرتها. لم ولن تنتكص مطلقاً؛ تتعلق جذرياً بتراثها وايمانها، إضافة لقلقها الدفين! ويختلف أهل الفاليه هؤلاء، إن كان في سليقتهم أو طيشهم وعدوانيتهم وكذلك بأريحيتهم المأثورة، عن أغلبية الأقوام الأخرى المزيجة والسؤومة، التي يضمّها الاتحاد السويسري (وهل لنا أن نتساءل مع بترِ فون رُوتِن وأمثاله من متصلبّي الرأي في الفاليه العليا، - التوّاقة إلى سيادتها المفقودة- إن لم يكن الاتحاد الذي قام في عام ١٨١٥، بانضمام الفاليه إلى الاتحاد السويسري، إلا وهماً، إذ ما زال كثيرون في هذه المقاطعة، يطمحون إلى استعادة استقلال مقاطعتهم في أقرب وقت).

تلك هي سجاياهم: فهم عفويون ومستعدّون لأن يحبّوا لأول وهلةٍ، ولكنهم في نفس الوقت، لايراعون جانب من يحاول غشّهم.

وهم مستعدون للبغض، ولايعادل كراهيتهم لمن يمقتون سوى صداقتهم لمن يحبّون؛ هذه هي طباعهم، وقد تتمخّض صداقتهم عن عبءٍ أثقل من كراهيتهم.

نعم، تلك هي سجاياهم، وبرغم أولئك الذين يَجدُّون في انتقاصهم، برغم أولئك السفهاء والمزيّفين الأغبياء، نجد لديهم نزاهةً، تحرّك الأوتار الحسّاسة في الرجل، وتقودهم إلى مواقف خارقة لنكران الذات، عندما يتعرّض كيانهم للخطر. أمّا إدراك أعجوبتهم تلك، بل حتى خطورها في البال، فليس في متناول الجميع.

ونطرح الآن السؤال التالي: أفليست هذه هي صورة الموري (أي صورة شخصيته الحقيقية وليست تلك المُشوّهة والمنطبعة في ذاكرتنا العاطفية)؟ ويذهلنا خاصةً هذا الشبه براحل الصحراء، البدوي؛ أما فيما يخص البداوة، فمن الغريب كذلك أن نعتبر سكان آنّيِفية (في الفاليه السويسرية م.م.) وسواهم في وديانٍ أخرى، وطوال هذه الحقبة وفي المجال المحدود لمنطقتنا، نقول من الغريب حقّاً بأنهم لم يعملوا إلا بدافع غريزتهم وتقاليدهم معاً...

وبما أن حوليات العصر الوسيط وحتى تلك التي تلتها، مقتدية بها، قد صوّرت النموذج الأصلي الموري بشكلٍ مغايرٍ للحقيقة: سفّاحاً، قاطع طريق، مشعل حرائق، منتهك الحرمات، أي آفة الإنسانية جمعاء، فينبغي علينا، قبل كل شيء، أن نوضّح الأمر بجلاء ونردَّ له الاعتبار. فمن انتم في حقيقة الأمر، أيها الأسلاف المريبون وما الذي حملكم للمجيء إلى ربوعنا؟

مبشّرون أفذاذ:

هل يستطيع القارىء النبيه أن يقترح تعريفاً أفضل من تعريفنا؟ إذ لاالميل إلى الاغتصاب والمذابح وأعمال السلب والنهب، لا، ليس هذا كله الذي حثّكم على نزول شبه الجزيرة الايبرية (أطلق القدماء اسم ايبرية على شبه الجزيرة الاسبانية م.م) قبل أن تتوجّهوا نحو وسط أوروبة، كلا، لم يحثّكم كل هذا على الأمر، لاهوولا حتى المغامرة... ومبدأ الغزو الذي سيعمل بنيامين كونسْتَن[1] على نقده لاحقاً، بعد اكتساب هذا المفهوم قيمته الدلالية، لم يكن للمبدأ هذا، أي مدلول في عصوركم. وقد أطلق عليكم الكتّاب من عشيرتكم اسم «المجاهدين»، والمفارقة المدهشة، إنكم لم تكرهوا أي إنسان في ربوعنا، على اعتناق دينكم، بخلاف مسيحيي الغرب الذين اكرهوا الناس على اعتناق دينهم، تحت طائلة الموت، لم تكونوا من أنصار الحرب الدينية، والسبب على ما أعتقد، هو انكم واثقين بعقيدتكم لدرجةٍ، انكم انتظرتم تفوقها على غيرها، بفعاليتها الذاتية.

عندما جعلكم طارق (بن زياد م.م.) تعبرون المضيق لتوطّدوا أقدامكم في الرقعة الشبجزيرية (من شبه جزيرة م.م.)، التي خلّدت اسمه- جبل طارق (جبِرلْتار وهو الاسم الأوروبي م.م.) لم يبلغ عددكم سوى ستة أو سبعة آلاف شخصٍ. وفي العام التالي، ٧١٢، بلغ عدد من نقلتهم السفن

(١) كاتب وسياسي فرنسي، ولُد في لوزان (سويسرة ١٧٦٧- ١٨٣٠)، عارض سياسة الامبراطور نابليون الاستبدادية والتوسعية. (م.م.)

ليحتلّوا الجزيرة[1]، ثمانية عشر ألفاً، وهو أضخم حشد لجنودكم خلال عملية الفتح تلك. فقط ثمانية عشر ألفاً! وفي عدادهم، على ما يبدو، نساؤكم، كما يؤكد ذلك بابون (من كتاب العصر الوسيط) قائلاً، إن النساء كنّ برفقتكم في تجوالكم... وقد سلّم كتّابنا القدماء بهذه الأرقام، أولئك الكتّاب الذين أعطوا، بعد عقدين من السنين، انتصار شارل مارتل أبعاداً مذهلة، (المقصود هنا معركة بواتية=بلاط الشهداء، المذكورة أعلاه).

ويعترف أيضاً أولئك الكتّاب، بأنكم لم تجتاحوا اسبانية بمبادرتكم الشخصية، ولكنكم لبيتم دعوة أبناء ويتّيزا، (يسميه العرب غيْطَشَة) ملك الويزيقوط (القوط الغربيين)، الذي خلعه عن العرش رُوذريك أو رُوذْريْغر (يسميه العرب لَذْريْق)، الذي كان نصّاباً على ما يبدو. ويزعم بعضهم أن اتفاقاً ما قد جرى بين أعداء رودريك ويوليان «كونت موريتانية وحاكمها، صديق ويتّيزا وعدو رودريك، لأن هذا الأخير قد اغتصب ابنة يوليان بحجة أنه سيتزوجها»[2] (أتانا بالخبر بُوْشه المحترم)[3] (هو الكاتب المذكور في مقدمة الكتاب م.م.). ولكننا نقول، هل يمكن معرفة هذه الملابسات... حقاً، أصبحت العرافة مهنة مؤرخينا!

ثم راحت الأمور تتلاحق؛ فبعد استبعاد المغتصب رودريك، والسيطرة على القسم الأكبر من شبه الجزيرة، وبعد سنتين فقط من بدء عملية الفتح، أُعلنت سيادة الخليفة العباسي، في العاصمة طليطلة (العاصمة القوطية القديمة)، وكان ذلك في عام ٧١٣[4]. لم يستغرق هذا كله سوى

---

(١) مدينة صغيرة في جنوب اسبانية، قرب جزيرة صغيرة، سماها العرب الجزيرة الخضراء، واشتهرت في الوثائق الاسبانية باسم ALGECIRAS(م.م.)

(٢) لتفاصيل أوسع انظر: **دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها**، للدكتور أحمد بدر مطابع ألف باء، دمشق ١٩٦٩.

(٣) يتهكم الكاتب على الخبر وصاحبه. (م.م.)

(٤) لاعلاقة للعباسيين بالأمر، فوقائع فتح اسبانية بدأت في عهد الخليفة الأموي السادس (الوليد بن عبد الملك ٧٠٥- ٧١٥). ونرى عدة كتاب غربيين من غير ذوي الاختصاص، يقعون في الخطأ، وكأن كل شيء في تاريخنا يرتبط بهارون الرشيد والعبّاسيين. (م.م.)

سنتين، ولذلك يمكننا القول انهم قد استقبلوكم كمحرّرين (ولم نعد نسمع أي شيءٍ لا عن أولاد ويتّيزا ولا عن مملكة أجدادهم التي استمرّت ثلاثة قرون). ومضت تسع سنوات أخرى، كنتم خلالها، بكل تأكيد، تقضمون، ودون اغتمام أعدائكم للأمر كثيراً، المجال المحظر عليكم، وراء الجبال (المقصود هنا جبال البيرنِه- البرنس عند العرب- الفاصلة بين فرنسة الجنوبية واسبانية الشمالية م.م.). ثم كانت جلجلة الحدث في حولياتنا (الغربية م.م.) التي تذكر أنه في عام ٧٢١، زحف «جيش ساراكنسي (عربي م.م.) جبار» نحو تولوز (طلوشة عند العرب م.م.) (وهي أقدم عاصمة للويزيقوط= القوط الغربيين) بقيادة أحدكم: زاما (السمح)[1]. فأحاق الخطر- كما تقول الحوليات- بالعالم المسيحي... ونؤجل التعليق على قولٍ كهذا إلى الفصل الثاني، مع احتفاظنا وقتياً بتعبير «مبشرين»، آخذين بعين الاعتبار مصطلحات ذلك العصر.

أما بالنسبة لما أخذته الكنيسة (الغربية م.م.) عليكم، على شبقكم، عندما زعموا انكم تقبضون على كل امرأةٍ تصادفونها فتلحقونها بمنيكم، مخلدين بذلك عرقكم الممقوت... فيا لزعمهم هذا!!

أوزابية الأربعون راهبة:

فأيّ غيلان كنتم، لتدنّسوا حتى «العذروات اللواتي نذرن انفسهن لله»؛ وفي عداد منكراتكم التي أسخطت المسيحيين (الغربيين م.م) تخطيتم المألوف في تدنيسكم الانتكاسي هذا... ويجب أن نعترف أن مفهوم الرهبنة لم يكن من طبائع عيشكم، كما أنه وُجِدَ بين أولاء العذراوات، ولم تكن

(١) هو الوالي علي الأندلس، السمح بن مالك الخولاني، من (١٠٠- ١٠٢ هجري = ٧١٩-٧٢١ ميلادي)، قُتِلَ على رأس جنوده، أمام تولوز في التاسع من حزيران ٧٢١م. (م.م.)

كلّهن من الأبكار، من كان في غاية الملاحة واليافعات والسوغة(*) المتمردة، إضافة لفتيات التجأن إلى الأديرة لافتقارهن إلى البائنة(**) أو للافلات من براثن عجوزٍ خرِف طمع ذووها بزفّها إليه. وكان في عدادهن أيضاً، محظيات مهجورات وكذلك عواهر نادمات، وهو أمر كان شائعاً آنذاك.

أتحنق أرواحكم من ثرثرات كهذه؟ لا بأس... أما نحن، فلا نسلّم حرفياً بمختلف هذه الحكايات البشعة، التي ابتكروها لاخضاع العامة. ولكن إحدى هذه الروايات تؤذي السمع إلى درجة تجعلنا نعتقد انها ليست صادرة عن مخيلة الاخباري المريضة. وإليكم القصة، على ذمة الراوي:

كانت أُوزابية، بل القديسة أوزابية!... رئيسة ديرٍ في مرسيلية، حيث انعزل عن الناس أربعون راهبة. وفي أحد الأيام، حوالي عام ٧٣٨، خلعتم أبواب الدير واقتحمتموه... وفي غضون ذلك، أصبح المُصلّى مسرحاً لطقسٍ غريبٍ، حيث كانت الكاهنة ورفيقاتها يجدعن أنوفهن، كمنجاة من شهواتكم التدنيسية.

وقبضتم عليهنّ جُدع الأنف، علماً أن بُوشه الراوي (مرّ ذكره أعلاه م.م.) وكذلك السنكسار(***) المسيحي يسلمّان بانكم حافظتم على عفتهن ولكنكم أجهزتم عليهن. ويزعم بعض الرواة الخبثاء أن شهوة شبقكم كانت شنيعة لدرجة أنكم، على الرغم من تضرجهن بالدم وخور قواهن، ألحقتم بأولاء المساكينِ العار الأكبر.

عنف الباب المخلوع:

فلا عجب أن تكون مشاهد كهذه، مقترنةً بانتهاك الحرمات وارتكاب المذابح وأعمال النهب والسلب، والتي دامت مئتي وخمسين سنة، نقول

(*) مذكرها سوغ، وتقابل الكلمة الفرنسية- الاسبانية INFANT, E وهو اسم ثاني البكر لملوك اسبانية والبرتغال. (م.م.)

(**) المعروف عند المسيحيين بـ«الدوطة» وهو مهر الزوجة. (م.م.)

(***) مجموع تراجم القديسين والصالحين يُقرأ على الناس في البيع المسيحية بمناسبات دينية معينة. والكلمة كنسية وذات أصل يوناني. (م.م.)

ليس مدهشاً أن يجعل هذا كله الرأي العام حذراً من الموري، وأن لانجد بقعةً في العالم المسيحي (الغربي م.م.) إلا وتحترس من الموري لمجرد اقترابه أو ظهوره. (في حين أن استقباله بشكل أفضل كان سيغيّر حتماً مجرى الأحداث.)

حقاً! لم تكن سمعتكم حسنة... وما هي ذريعتكم للدفاع عن أنفسكم؟ قد تقولون ان الاسلام بفكره الخلاّق، الند لفكر شارل دوفُوكُو(*)، لايمكن أن يأخذ على عهدته أمرَ مختلفِ أولاء المتسكّعين وأخبارهم، كما أننا نجد خلف عشرة مؤمنين صالحين، عشرين مغامراً يقتفون أثرهم، وإنها لظاهرة ثابتة في كل زمان ومكان.

أما أنا، فلديّ حجّة أفضل للدفاع عن سمعتكم: فالقساوة كانت عنوان ذلك العصر؛ والحمقى فقط هم الذين يبدون رأياً أخلاقياً في أمور كهذه، دون أن يحاولوا، قياساً، تصور محيطها، في أيامها السالفة، فمثلاً من الذي يجسر على مقارنة سيئاتكم، المبالغ فيها، بالفظائع المقترفة في المكسيك، باسم الملوك الكاثوليك(**)، بعد ستة أو سبعة قرون. وحيث أن الحديث يدور حول هذه المسألة، فلا بدّ لي من القول، إنّ هذه الإبادة الجماعية المربحة في رأيي، من النماذج - كأفران تحريق الجثث، أو نشاهد في عصرنا هذا، المعالجة السريرية للرافضين (السياسيين م.م.) المشهورين، الذين ينقلون عاهة وراثية (على سبيل المثال أوعية ألْدُس هكْسلِي(***) الزجاجية، في روايته «أفضل المجتمعات») تلك النماذج بضلالها الأعظم تجعلنا نتطيّر من مصير الإنسان. بالنسبة إلى هذه الجرائم الشنيعة، يمكننا أن نعتبر هنات عدة تصرفات من ذاك الماضي السحيق، المذهلة بقبح عملها.

(*) مستكشف ومبشّر فرنسي (١٨٥٨ - ١٩١٦) خدَم كضابطٍ في الجيش الفرنسي قبل أن يدخل سلك الرهبنة، قُتل في جنوب الجزائر. (م.م.)

(**) المقصود هنا خاصةً ملوك اسبانية و البرتغال، في القرن السادس عشر، حيث جرى في عصرهم استعمار المكسيك وغيرها من بلدان امريكة اللاتينية، بعد اكتشاف اميركة عام ١٤٩٢. (م.م.)

(***) كاتب انكليزي (١٨٩٤ - ١٩٦٣)، اشتهر كنقادة للمجتمع الصناعي المعاصر (م.م.)

سوق فِرْدُن(*):

نعم! ليست سوى هنات، وهم الذين لم يستنكروا الممارسات الرائجة في هذا المجمّع التجاري، الذي شهد، قبل نهاية الألف الأولى، ازدهاراً كبيراً في مجال عمله، ونعني بذلك بيع الرقيق، لاسيّما المخصيّين منهم ميدانياً، بطلبٍ من المشتري.

وتصدّر الصقالبة رأس القائمة، وكانت الأسبقية للشبان والماهرين والأشداء منهم. ثم يطرحون عليهم أسئلةً كهذه: «أتعرف الحساب؟ أين يقع الشمال... ارفع هذا الثقل!»، ثم يعلن السمسار: «صالح للخصي».

وتوكّل بعملية الخصي حلاّقون مدربون يخضعون لنظام العمل المسلسل. واقتصرت عملية التخدير على ضرب الرأس بالمطرقة... جرى كل هذا في قلب العالم المسيحي (وهمس بعضهم مضيفاً أن البلاط البابوي الروماني لم يسلم من الأمر، وذلك محافظة على صوت الصبيان الملائكي).

وكره المشتري الذي كان يدفع الثمن كاملاً، اجراء عملية الخصي بنفسه، لجهله بها؛ أما المشتري فهي قرطبة، لحاجة ثيوقراطيتها (حكومة يشرف عليها رجال الدين) المتزمتة(**)، لخصيانٍ ماهرين... وهكذا، غمر الذهب اسواق فِرْدُن، وعندما سيعود العرب بعد ألف سنة، وجيوبهم مملوءة بالبترودولار (دولارات النفط م.م.)، فلا نراكم تعبسون في وجههم، بل بالعكس تماماً.

وما وددت فقط قوله هو أن المسيحيين أنفسهم لم يكونوا برمّتهم أتقياء.

(*) مدينة في شمال شرق فرنسة، اشتهرت في العصر الوسيط، لاسيّما في العصر الكارولنجي (نسبةً إلى شارلمان وخلفائه، من القرن الثامن حتى العاشر). ذاع صيتها كسوق للرقيق. (م.م.)

(**) لاندري مايقصده الكاتب هنا، وكما نعلم لم يكن التزمت من سمات الحضارة العربية الاسلامية إن كان في الاندلس أو في غيرها من بقاع الامبراطورية العربية؛ ونحن لاننكر ظهور بعض المشرعين والحكّام المتزمتين، بين فترة وأخرى، بخلاف ما كان عليه الأمر في أوروبة القروسطية، حيث التزمت والتعصب والظلامية (م.م.)

ويجب تدوين ملاحظة أخرى، اعتبرها ذات أهمية، وهي أن أفعال الموريين وأعمالهم، والمتعلقة أصلاً بالوقائع العسكرية، قد رواها مراراً وتكراراً رجال كنسيون، باعتبارهم لاهوتيين أو منتحلين الصفة اللاهوتية، وهذه الروايات وحدها، لعدم وجود غيرها، أضحت أساس تاريخنا الرسمي. حقاً انها لثالثة الأثافي. وما عليكم إلا أن تمعنوا النظر في الأمر: فحيث أن المصادر الحقيقية، أي الوثائق الرسمية التي ترقى إلى تلك الحقبة المبهمة للقرون الثامن والتاسع والعاشر قد زالت، وما أدركناه يظلّ غامضاً ومتناقضاً، ولايعدو أن يشكّل لغزاً؛ وأمام وضعٍ كهذا، اعتمد مؤلفونا غالباً، على كتابات موضوعة لاحقاً بأقلام مدونّي أخبارٍ لاهوتيين من القرنين الخامس عشر والسّادس عشر. ونحن ندرك جيداً موقفهم الأخلاقي في الوقت الذي كانت فيه السلطات الكاثوليكية الاسبانية منهمكة، في عمليات اضطهاد بشعة(1)، ضد الموريين واليهود معاً، وقد أوغلت في إفناء عروق بشرية بأسرها للاستيلاء على ثرواتها . . . وقد بذلوا قصار جهدهم، بجعل الموريين رسلاً للشيطان، بعد أن حشروهم في عداد الأتراك، الأفظاظ في تعصبهم.

تُرى، أهي يوطوبيا(2)؟:

ولمعت عيونٌ متّقدة خلف المشربيّات(*) . . . في حين كانت صبايا، بعضهن في الخمار، يتنزهن في الخارج، مستطيبآت عذوبة المغرب: قاسيات النظرة كالأندلسيات، غامضات كالزرد شتيات وقد تقلنسن بشبكة شعرٍ

---

(1) أشرف على هذه العمليات رجال محاكم التفتيش، الذين لاحقوا المتهمين في دينهم من مسلمين ويهود إضافة لعديدٍ من المسيحيين المشكوك في ايمانهم. وكانت عقوبة المتهم حرقه حياً أو صلبه (م.م.)

(2) مدينة فاضلة تخيلها الكاتب الانكليزي توماس مور (١٤٧٨ - ١٥٣٥) في مؤلفه الشهير Utopia(١٥١٦)، تحكمها حكومة مثالية ويعيش فيها شعب سعيد (م.م.)

(*) شبّاك يسمح بالرؤية دون أن يُرى من ورائه. (م.م.)

زرقاء اللون، يقظات كاليهوديات والقبطيات، سفيهات كالقيان المنغوليات بوجناتهن البارزة، خليعات كالنوبيات، متفجرات مرحاً كخلاسيات جزر الباليار[١] وصقلية، يثرثرن لوحدهن في الشارع. وكان أكثرهن حشمةً، برفقة حَيْزَبُون غضوب أو خصيّ مقدام. ولا يتطلّع اليهن أيّ رجلٍ، فالرجال كانوا مستغرقين في تأمّل بعضهم بعضاً: من الموري بجلابيته والفارسي بردائه السابغ والأسود بجلبابه الواسع، وقد اختلط جميع هؤلاء بالويزيقوط (القوط الغربيين م. م.) السكوتيين وكذلك بالأمراء اللابسين أقمشة دمشق المتوهجة والعثمانيين[*] بطرابيشهم الحمراء[**] والمصريين المعمّمين... أما ذاك الذي يتصدرهم وكله إعجاب بذاته وقد تكلّل بقلنسوةٍ تتلألأ بالجواهر، فهو مسيحي من الحبشة، تلك الأمة القوية، المتخاصمة مع بغداد (الخلافة العبّاسية) (م. م.) لاستئثارها بالتجارة البحرية (في المحيط الهندي) (م. م)... يمشي البختريّة دون عداوةٍ لأيّ إنسان. ويلتقي المرء أحياناً بتجارٍ من فلاندرة[٢] برأسهم الكبير المستدير، وكذلك بسفّانين يونانيين ماكرين كالقرود، وأناسٍ من البندقية وبيزا (مدينة ايطالية شهيرة ببرجها المائل) (م. م)، إضافةً لخليطٍ من المتاجرين قدموا من مختلف أنحاء البحر الأبيض المتوسط وحتى من سواحل المحيط الأطلسي. ونشاهد أساقفةً ونائباً بطريركياً وحاخامين وكذلك أدباءً ذوي وقار بطربوشهم البنفسجي، وطلاب الجامعة (جامعة قرطبة الشهيرة)، الذين ينتمون بدورهم إلى مختلف الأجناس والأديان. وأضحت هذه الجامعة، بشهرتها العالمية، محطّ أنظار طلاب مختلف البلدان؛ فإضافة لتدريس علوم القرآن والمناهج العلمية، نجد

(١) ثلاث جزر في البحر الأبيض المتوسط مقابل الساحل الشرقي لاسبانية وهي كما سمّاها العرب: منورقة، ميورقة ويابسة (م. م.)

(*) لم يكن للعثمانيين أي وجود في ذلك العصر، عصر عبد الرحمن الناصر (٩٢٩- ٩٦١) ولن يظهروا على المسرح العالمي إلا بعد أربعة قرون تقريباً (م. م.)

(**) لم يكن الطربوش معروفاً آنذاك (م. م.)

(٢) مقاطعة في أوروبة، يقع قسم منها حالياً في شمال فرنسة وقاعدتها مدينة ليل والقسم الاخر في بلجيكة الشرقية والغربية، اشتهرت بصناعاتها الصوفية (م. م.)

حاخاماً يحاضر في رحابها، كذلك اساتذة مسيحيين، في عدادهم عالم لاهوت ذائع الصيت. وتبدو لنا الحياة في هذه المدينة المذهلة (المقصود هنا قرطبة م. م.)- ولاندري أبسبب بعدها الزمني عنا- ساكنةً بل ومطمئنة وتكاد تكون هادئةً، أما اللاتين (الأوروبيون الغربيون) فلا يحتملون محيطها إلا بمشقة؛ وكأن هذه المدينة قاع بحرٍ، قليل العمق، تكاد التيارات تهزّ طحالبه وبزوياته (حيوانات آحادية الخلية م. م.). . . لاأحد يبالي ولاأحد يخشى جاره، ولايشاهد المرء سوى دوريات الشرطة وهي تعبر ذهاباً وإياباً، وتظلّ كسمك القرش مسالمةً هادئة، بمقدار أن أعمال السطو والعراك والقتل لم تطلق العنان لسورة العنف. . .

وفي فتور المساء، يلتقي المسلمون وأهل الذمة وهم يتبادلون التحيات بلطف، والجميع يشعرون وكأنهم في دارهم. ولا يشق صفوف هؤلاء وأولئك سوى أذان المؤذن (ولاشيء يضاهي نشيد الإنسان هذا في روعته سوى تراتيل رهبان سولم[1]). وحينئذٍ يعود بعضهم على عجلٍ إلى الديار ويسجد من تكاسل منهم أينما كان؛ بينما يواصل الآخرون مسيرتهم نحو الحديقة الكبرى، حيث تنتصب أشجار البرتقال والأوكالبتوس، والحديقة تلك هي قلب العاصمة. فمن جهةٍ يقع البازار (سوق العاصمة م. م.) كمدينة قائمة بذاتها داخل أسوار العاصمة، حيث الحمامات والمساجد والأحياء المغطاة؛ ولكل مهنة سوقٌ خاص بها: سوق القصّابين فالجوّاخين ثم النحّاسين والعطّارين. . . بينما يستأثر الصاغة بحيٍ كامل، حيث يقصدونه من مناطق نائية، لاختيار خواتم الذهب المرصّع والمشابك وزرد الزنانير، أي مختلف أنواع الحلي النسائية؛ وبالنسبة للرجال: الخواتم والسلاسل والأحجار الكريمة والأسلحة النفيسة. وفي الجهة الأخرى من الحديقة نشاهد عمارة جديدة، غطّت جزئياً واجهتها صفائح نحاسية مزينة

(١) تقع المدينة في مقاطعة سارت الفرنسية، في وسط غرب فرنسة. اشتهرت بديرهاالتابع للرهبان البندكتيين، الذين طوّروا التراتيل الكنسية الغريغورية(م. م.)

بالمسامير: إنها دار سك العملة الشهيرة، حيث تتجمع من كل جهةٍ دكاكين الصيارفة، الذين يكوِّنون جمعية متربّعة، وقد تجهّز كل واحد منهم بميزان دقيق وعدّادة وقد أشعل سراجه، مع أن الشمس ما زالت في الأفق. كانت الفنادق رائجة، وتلك التي تشغل كامل الفسحة بين المصرف والسوق الكبير (البازار)، كانت على قدر كبير من الترف، ولقد خصصت الفخمة منها ثلاثة خُدّام للنزيل الواحد. . . واقتصر المبيت فيها على المسافرين الأثرياء العابرين. ولم يعهدوا آنذاك لاالمقاهي ولاحانات الشراب، حيث يتلاقى المواطنون للحديث في الأعمال التجارية أو أمور السياسة. . . وقد عزفت نفسهم عن السياسة وشؤونها.

قد يجد المرء، بعدكد وجدٍ، هنا وهناك، بعض المطاعم المتواضعة، حيث لاخمر ولامسكرات، ومعً ذلك، كانت تلك الأمكنة محرّمة على النساء. وكان أغلب الزبائن مقرفصين أو ممددين أرضاً على البسط، ومن تضايق من هذا الوضع جلس على مقعدٍ منخفض، ويقدم لهم صغار الزنوج، على أطباقٍ أو مناضد، أقداح الماء البارد، و التوابل المجبولة بالعسل أو عجينة اللوز، وكذلك نوعاً من عصيدةٍ قاتمة اللون، ساخنة ومحلاّة بسكرٍ زائد (ولاندري، هل هو ثمر شجر البن المجروش، الذي لن تعرف مذاق طعمه فرنسة إلا اعتباراً من القرن السابع عشر؟)

ويستطيع غير المسلمين ممن يتذوقون الخمر أو كحول التين، أن يحققوا رغائبهم في الحانات المبهمة الموزعة على طريق البحر، المزدحمة باستمرارٍ بحركة مرور كثيفة لعربات النقل. وبامكان هؤلاء أيضاً أن يأكلوا لحم الخنزير المشوي. . . ذلك هو وضع هذا المجتمع اللائق بتوماس مُوْر، لأنه قد أفسح المجال لجميع الأديان ولمختلف أنماط الحياة، على أن لايتحوّل سلوك المرء إلى مصدر اضطراب وصخب لأي مؤمن.

الشارع الملكي:

كانت المنازل منخفضةً وسيئة التراصف ويتكوّن أغلبها من طابقٍ واحد، بحيث لم يكن عابر السبيل عرضة لخطر رشّ مختلف أنواع السوائل على غرار ما كان يجري في روما في عصر جوفنال[1]؛ وتحولت سقوفها إلى أسطحة حيث يتبرّد المتقاعدون. ولاتطلّ واجهاتها على الطريق إلا نادراً. وتحيط بالمنازل جدران شاهقة، تتخلّلها أحياناً بوّابة، تتيح لعابر السبيل الصاغي التقاط قهقهات نساء أو تناغم الناي الشجي مع الطبلة وهذا الكمان البدائي (الربابة م.م.). حقاً، كان انس البيت الاسلامي وسيظلّ فريداً في نوعه. واخترقت المدينة ثلاث جادات واسعة وسالكة تماماً من جهةٍ إلى أخرى، وهي مبلّطة بالحصى الملساء؛ أما الشوارع العرضانية أو الموازية، فلم تكن كذلك، ولكنهم كانوا يرشّونها يومياً لتنقيتها من الغبار.

وتنفصل الجادة المركزية، وهي الرئيسية، عن أقسام المدينة الأخرى، لتؤدي إلى القصر، الذي اشتهر لاحقاً باسم مدينة الزهرة[2].

ويخبرنا الجغرافي العربي[3] الذي يشيد بهذه «المدينة ذات الخمسمائة مسجد وسبعة أبواب حديدية» بأن الهضبة التي أقاموا عليها القصر تُدعى

---

(١) Juvenalis (حول ٦٠- ١٤٠ ميلادي) كاتب لاتيني اشتهر بنقده اللاذع وهجائه لمجتمع روما وعاداته وتقاليده ويعطينا صورة حيّة للحياة اليومية في عاصمة الامبراطورية. وفي بعض أهجياته يصف لنا حالة عابري السبيل المرشوسين بمختلف السوائل وغيرها من المواد القذرة (م.م.)

(٢) هي مدينة الزاهرة، وقد ورد اسمها أيضاً الزهراء كما يقول الشاعر (ابن زيدون) مناجياً (الولادة بنت المستكفي):

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً والأفق طلقٌ ومرأى الأرض قد راقا

أو كما مجدّها مع قرطبة أحد شعراء الأندلس:

بأربع فاقت الأمصارَ قرطبة منهن قنطرة الوادي وجامعها

هاتان ثنتان والزهراء ثالثة والعلم أعظم شيءٍ وهو رابعها (م.م)

(٣) المقصود هنا الجغرافي (الزهري) في كتابه «الجغرافية» وهو من علماء القرن الحادي عشر للميلاد (م.م.)

جبل بطلاش[١]. ويحدثنا أيضاً عن الرصافة، وهي القصبة الجديدة التي شيّدت من جهتي الجادة الجديدة، حيث راحت المساكن تنمو بسرعة فائقة، لأن صاحب الزهرة[٢] (الزاهرة م. م.) عرض منحةً تعادل أربعمائة درهم لأي إنسانٍ قرّر الإقامة في الضاحية الجديدة.

وهذه الجادة بالذات، التي تشعل حالياً مصلحة الطرق القناديل بمحاذاتها، هي نفس الجادة التي ارتقاها غير مرةٍ يوحنا، راهب ديرجورز، بعربيته التي تجرّها البغال والمغطاة بظلّةٍ مزركشة... يتقدمه ضابطا شرفٍ من الفرنجة... وكان قلبه يخفق... (لأنه سيكون بعد دقائق في حضرة صاحب الزاهرة م. م.)

في الواقع، لايقترب المرء دون قلقٍ من الزهرة، تلك الحديقة الغنّاء، حيث تشمخ قبّة مسجدها الصغير، ذات اللون الفيروزي ومئذنتها البيضاء كالثلج. نعم! ليس بامكان المرء حالياً أن يقدّر حق قدره انفعال أي إنسانٍ يكتشف هذه الأماكن المحظورة، حيث يترقرق ماء الينابيع وحور العين الذوابل، في رحاب الحدائق التي تغصّ بعصافير غريبة... إنها لجنّات عدنٍ على الأرض. ومع ذلك، فإن مندوب أوتون الكبير[٣] قد ذاق تمام حلوٍ طعمها عند ولجها. فبعد أن خلع نعليه عند الباب غسل له خُدّام سود قدميه، على غرار الاغريق مع ضيوفهم في الولائم؛ فشاهد عبر أبوابٍ منفرجة صحون الدار الرائعة، ببلاطها المزجج وقد طلعت منها باقات زهرٍ فاقعة اللون وأشجار البرتقال بثمارها المنعكسة على الأرض الملمّعة. لقد سمع تغريد العصافير ولمح النساء بطلعاتهن البهيّة... ولاندري! هل كان تطفله

(١) يسميه الاسبان (بطروش) وعند العرب جبل العروس على مسافة خمسة كيلومترات إلى الشمال من قرطبة. (م. م.)

(٢) هو الخليفة عبد الرحمن الثالث الناصر (٩١٢- ٩٦١)

(٣) هو أوتون الأول الكبير (٩١٢- ٩٧٣)، كان معاصراً للخليفة عبد الرحمن الثالث الناصر (٩١٢- ٩٦١)؛ ملك جرمانية وايطالية وحامل لقب امبراطور «الامبراطورية الجرمانية المقدسة»؛ تغلّب على الهنغاريين والصقالبة ومنحته البابوية لقب «حامي العالم المسيحي» (الغربي). (م. م.)

سبباً في اخفاق مهمته، علماً أنه لم يكن بنية الخليفة مطلقاً، وسنوضح هذه النقطة لاحقاً، أن يتبرأ من الفراكسينه، (انظر أعلاه الشرح في هوامش المدخل) ذلك الفسل: الفرع الجسور لقرطبة . . .

البرق الخُلَّب:

إذ أن تلك الحاضرة، باسرارها الوافرة المنسية، ليست سوى قرطبة، في القرن العاشر. وقصر ألف ليلة وليلة ذاك، ليس سوى قصر عبد الرحمن، الملقّب بالثالث، آخر وارث للأمويين، الذي حمل لقب خليفة اعتباراً من عام ٩٢٩، بعد تحرّره من وصاية بغداد(١).

آهٍ، يا قرطبة! ، وآهٍ لأسلافنا! (أسلاف المؤلف م. م.)، ألم تكوني حقاً جديرة باهتمامهم؟! . . . بمياهك الصافية الجارية وظلال ورونق أثواب أهلك وموسيقى السنتهم مع شخصيات التوراة، إضافة لكل ذلك، حيويتك العالمية الجامعة (الكوسموبولية م. م.) التي تنبعث في تلألؤ مغرب شمسٍ افريقية . . . ومسجدك الجامع هذا، الذي ينهض كصرحٍ من صروح فنون الهندسة المعمارية: وقد قرن الدعائم(*) الاغريقية بالقبة (المشرقية م. م.) والقوس القوطية بالزخرفة المخرّمة السورية، كل ذلك بوحدة طراز مبتكر، وهو في نفس الوقت وبذاته حاضرة الثقافة، حيث يتحلّق مئات الطلاب حول اساتذة العلم الموروث، في رحاب مكتبة حوت آنذاك (٤٠٠ ألف) مخطوط وكادت أن تضاهي مكتبة الاسكندرية . . . نعم! إنها الأندلس الباهرة . . .

---

(١) في الواقع، على الرغم من استقلال الأندلس عن الخلافة العبّاسية بعد زوال السلطان الأموي، فإن امراءها قد اكتفوا بلقب «أمير» حتى أيام عبد الرحمن الثالث الناصر، وهذا ما يعكس احترامهم لفكرة الخلافة الوحيدة في ديار العرب والاسلام. ولكن بعد أن أصبح خليفة بغداد ألعوبة بيد الجند الترك وغيرهم، تجرّأ الأميون في الأندلس وحملوا لقب خليفة. (م. م)

(*) عمود للدعم أضخم من العمود الاسطواني العادي وقد يكون مربعاً (م. م)

وهرع الجميع إلى قرطبة، واجهة الكون. . . متفاخرين، وكل واحد منهم مستغرقٌ بتأمل نفسه والبحث عن ذاته. نعم، وُجدَ في عداد هؤلاء بعض الطفيليين المتعطشين لجمع الثروة وغيرهم من هواة الحياة العذبة المرحة، ولكنهم كانوا قلة بالنسبة للآخرين، ممن ينشرون قليلاً من هذا القبس السرمدي، المنقذ من اليأس. . . آه يا قرطبة! ألم يكن من الأجدر بهم تركك وشأنك، فيستلهموا منك، ونكونٍ بذلك قد قفزنا إلى رحاب التاريخ خمسة قرونٍ، دفعةٍ واحدة.

احتوتٌ قرطبة آنذاك (القرن العاشر للميلاد م. م.) خمسمائة ألف نسمة وكانت في غاية التنظيم والتمدن (لن يبلغَ عدد سكان باريس(*) في منتصف القرن السادس عشر سوى ٣٠٠ ألف نسمة). جهّزها حكامها بقنواتٍ لتوزيع الماء الشروب علي مختلف احيائها، إضافةً لشبكة مجارير عامة- في وقتٍ ستقضي خلاله السيدات الأنيقات في عصر لويس الرابع عشر[1] الضرورات الطبيعية في أطراف أدراج سلالم قصر فرساي(**).

وكادت المنافسة الكبرى (قرطبة م. م.) لبغداد والقسطنطينية (البيزنطية م. م.) أن تزيحهما من الساحة. أما ميناؤها المرية(***) ويحمل حينئذ اسم قلعتها المنيعة، القصبة، أما المارية، بمعنى البرج المرقب، فهي تسمية عربية لاحقة، فكان من أكثر الموانىء ازدهاراً، بأسطوله التجاري والحربي ببوارجه المئتين، ذات السطوح المتعددة. وبلغ عدد فنادق المرية تسعمئة فندق، بعضها فاخر السمعة، مع خضوعها بأجمعها لمراقبةٍ صارمة،

(*) علماً أن باريس كانت حينئذ عاصمة مملكة مركزية ومن ملوكها المشهورين فرنسوا الأول (١٤٩٤ - ١٥٤٧) راعي النهضة الفرنسية (م. م.)

(١) هو الملك «الشمس» الأكبر (١٦٣٨ - ١٧١٥) وهو من أكبر ملوك عصره، عُرف بحكمه المركزي الاستبدادي وبحروبه المتلاحقة مع عدة دول أوروبية، وهو الذي جعل فرساي عاصمة الملكية الفرنسية. (م. م.)

(**) تقع فرساي على بعد (١٤كم) جنوب غربي باريس. تشتهر حتى يومنا هذا بقصرها ومتاحفها وبالمؤتمرات الدولية التي عقدت فيها (م. م.)

(***) اسمها الاسباني حالياً Almeria (م. م.)

كما هو الحال بالنسبة لمختلف مدن الأندلس، إن كان من ناحية الأسعار أو جودة الاستضافة ووجبات الطعام وقواعد الصحة و الخدمات . . . حقاً، لو كان الأمر مغايراً، لما اقتصر مكسبنا على خمسة قرونٍ فقط(*).

العصر الذهبي:

وحسبنا أن نعود بالذاكرة إلى إسبانية في ذلك العصر. فبعد مضي قرنين فقط، بلغت اسبانية تلك الفيزيقوطية، الهزيلة والمتخلفة، قمةً من قمم الحضارة العالمية. ولم يقتصر الأمر على قرطبة، كعاصمة للتعليم والعلم ومصدرٍ للثروات، بل اشتهرت كل من قادش(**) وغرناطة (اسمها الاسباني Granada) واشبيلية (في الاسبانية Sevilla) وطليطلة (Toledo الاسبانية) ومُرْسيّة (في الاسبانية Murcia) وبلنسية (Valencia الاسبانية) والمريّة، اشتهرت كلٌ منها بمعاهدها العليا وصناعتها ومصانعها واستثمار مناجمها وحرفها وتجارتها وزراعتها، التي أغنت شبه الجزيرة أضعافاً مضاعفة قياساً لكل ماجلبته فيما بعد فتوحات ماوراء البحار وذهب بلاد أنكا (Incas) في أمريكة الجنوبية(***).

(*) يقصد الكاتب هنا لو أن أسلافه الغربيين في العصر الوسيط لم يناصبوا العرب الأندلسيين العداوة واستفادوا من حضارتهم الراقية. (م.م)

(**) اسمها الاسباني الحالي GADIZ وهي قادش التي بناها أسلافنا الكنعانيون (الفينيقيون) في القرن الحادي عشر (ق.م.) وتعني «المقدسة». تقع على المحيط الأطلسي، جنوبي غربي اسبانية. ولدينا في بلاد الشام قادش في فلسطين وقاديشا في لبنان وقادش (تل النبي مند قرب حمص). (م.م.)

(***) عندما قام الاسبان والبرتغاليون بفتوحاتهم الهمجية في امريكة الجنوبية، في القرن السادس عشر، بعد اكتشاف امريكة، قضوا على حضارات بأكملها وأفنوا أقواماً عن بكرة أبيهم، فزالت من الوجود حضارات (أنكا Inca) و(آزتك Azteque) و(مايا Maya) ونهبوا ثرواتها ليرسلوها لبلادهم. (م.م.)

وعلى غرار باريس أو روما في عصرنا هذا، روّجت اشبيلية الزيّ (الموضة) مقروناً بالعطور والحلي وأدوات الزينة. أما قادش. فكانت المعلّمة في تخطيط قواعد الهندسة المعمارية المدينية (نسبةً إلى بناء المدينة). ولانظير لطليطلة في صنع الأسلحة ولسرقسطة في صناعة الفراء؛ وذاع صيت قرطبة(*) في معالجة الجلود وتصنيعها إضافة لاتقانها صناعة البلّور (الزجاج الأبيض الشفّاف) وهو من اختراعها. وإضافة لكل هذه الروائع، أبدع العرب، وهم أساتذة تقنيات، لم تخطر قط آنذاك في بال الغرب المسيحي، في عمليات قلع الرخام واستخراج الركزان (معادن غير خالصة) والعدانة (تنقية المعادن وصناعتها) والقرمدة (صناعة القرميد) وغزل القطن وحلّ الحرير من الفيلجة (الشرنقة)، كما أنهم اشتهروا في صناعة الزجاج والورق (المستورد من سمرقند) وفي بناء الترسانات (لصنع السفن واصلاحها)، زد على ذلك فنون الملاحة البحرية. ومن ناحية أخرى، لم يكن لهذه المعجزة الاقتصادية أن تتحقق، لولا الأسواق والتجارة البحرية في البحر الأبيض المتوسط، وقد هيمنوا على شؤونها. ثم نرى بعد عدّة قرون مقلداً باهتاً في شخصية كولْبِر(1)، يورث اسمه لمذهبٍ اقتصادي مزعوم، لم يكن في حقيقة الأمر سوى التصرف السليم لموريي اسبانية (عرب الأندلس م.م.). وعندما استخفّ مع آخرين من شاكلته، ببعض المبادىء الأساسية في التجارة الخارجية وطرق المواصلات البحرية، تحولّت الدولة في ميدان الاقتصاد، إلى أداةٍ فجّرت أموراً عجزت عن التحكم بها فيما بعد.

(*) تعني كلمة Cordonnerie بالفرنسية: سكافة، صناعة الأحذية، تجارة الأحذية، الخ... وهي مشتقة من كلمة قرطبة Cordova كما اشتقوا كلمة سخاتة، فن دباغة الجلود من اسم مراكش وهي Maroquin و Maroquinerie وMaroc(مراكش) م.م.

(1) رجل دولة فرنسي Colbert(١٦١٩ - ١٦٨٣)، نشط في مختلف الميادين: السياسية والتشريعية والاقتصادية في عصر الملك لويس الرابع عشر، وإليه نسبوا مذهب المركنتيلية (نظام اقتصادي نشأ في أوروبة خلال تفسّخ الاقطاعية لتعزيز ثروة الدولة بتنظيم الاقتصاد واعتبار المعادن الثمينة ثروة الدولة الأساسية) (م.م)

أنكر أسلافنا مختلف المآثر العربية تلك، فتناسوا منشأ الورق والمخمل، واللبد والقماش المشمّع ونوغا مونتلمار(*) وأواني المائدة، وكذلك الأنابيب والقساطل النحاسية والمرصّعات، إلى غير ذلك من الأشياء التي تؤمن في كل لحظة رفاهيتنا أو بهجتنا.

وحدائق إسبريد(**) تلك، المتناثرة على منحدرات جبال الأندلس الساحلية (البحرية)، محاذيةً الأعقّة (جمع عقيق الوادي الصغير م.م.) لتبلغ المنعرجات العديدة المحمية من الرياح لهضبة المشتى(***). والمشهد النحاسي اللون الذي نشاهده حالياً أثناء تحليقنابالطائرة فوقه، كان آنذاك ذا رقشٍ خضراء أكثر كثافة وأشدّ اخضراراً. وراحت تزداد أكثر فأكثر محاصيل الحمضيات والورديّات والعنب الحلو والدرّاق والخوخ وكذلك البقول والنباتات العطرية، بفضل نظام ريّ، تشهد حتى يومنا هذا على جرأة ومهارة مبتكريه قنوات السقي في مقاطعة الفاليه. وغطّت حقول الحبوب الواسعة والقطن والكتّان وأشجار التوت المخصصة لتربية دودة القزّ مساحات شاسعة، نراها مهملةً جزئياً، أما بساتين الزيتون فامتدت على مدى البصر. ولايغيب عن بالنا ذكر الحرائس (مرابط الخيل) في الوادي الكبير(****) والثيران، وكذلك تربية المواشي الكثيفة والدواجن فالأرانب (أحد حقول اختصاص اسبانية آنذاك، وقد قيل انها أشاعتها على نطاقٍ واسع حتى بلاد ليغورية(*****). وعلينا أن نذكر أيضاً تربية البغال وقطعان الخراف... وكرّست حوالي ثلاثة آلاف ضيعة جلّ شغلها في انتاج العسل. ويمكننا أن نذكر عدّة أمثلة أخرى عن تنويع الأعمال الزراعية وفقاً لطبيعة

(*) مدينة في جنوب شرقي فرنسة، شهيرة بصناعة حلويات النوغا. (م.م.)

(**) يطلق اسم Hesperidis على جزر خرافية تقع في المحيط الأطلسي، اشتهرت بجمالها وخضارها الدائم. (م.م.)

(***) في بلاد قشتالة، في وسط اسبانية (م.م.)

(****) نهر في جنوب اسبانية يمرّ في قرطبة واشبيلية ويصب في المحيط الأطلسي. (م.م.)

(*****) مقاطعة في شمال ايطالية متاخمة لجنوب شرقي فرنسة، من مدنها الكبرى ميناء جنوى. (م.م.)

الأرض المستغلّة . . . حقاً! كان الأمر منوقفاً على أسلافنا (الغربيين م . م .) وحدهم . (للاستفادة من مخلف منجزات العرب الأندلسيين الحضاريةم . م .)

الأسباب:

وقد أقرّها كل من كان على بصيرة من الأمر، فلم يجعل الاقتصاد، علم الأشياء المادية، عقيدةً ما أو فلسفةً بل اعتنق التحررية(*) بمراعاة روح المبادرة الشخصية والنفوذ المنشّط والتحرري في ذات الوقت لسلطة الدولة على فعالية الفرد المنتجة- فهذه العوامل وحدها هي التي تساعد على إثارة عملية انماء الثروات، (أما بالنسبة لعملية التوزيع فبمقدور أي ثرثار إتقانها) .

وأعطت قرطبة خير دليلٍ على صحة مسلمتنا هذه . لاجرم أن أولي أمرها قد شجعوا على تأسيس المصانع وإعادة استثمار المناجم وتنظيم وسائل المواصلات وتنسيق المزروعات: لقد اكتفوا باطلاق قوى الابداع المنتجة ولكنهم لم يسعوا إلى عمليات الاحتكار أبداً، بل أفسحوا المجال رحباً لكل فرد لاحتلال مركزه في هذا الكيان المزدهر . . .

لم يكن التسامح من سمات مجتمعات ذلك العصر، بعكس حال قرطبة (التي بزّت بيزنطة في شأن التسامح الديني، حيث عاقب الأباطرة البيزنطيون الهراطقة(**) بنفيهم)، التي رحّبت بمختلف التيارات الفكرية والمبادرات الفكرية الخلاّقة: من حريّة مدنية وفكرية . . . وحريّة المؤسسات الاقتصادية والمزاحمة الحرّة . . . حريّة العبادة (على شرط صدورها عن الكتب السماوية، إذ لا تساهل مع الوثنيين) . نعم! وكأننا في عالم الأحلام .

لم يسع الاسلام، وهو الامتثال لأمر الخالق، إلى استعباد الغير، بل ألقى أعباء جديدة على كاهل أولي الأمر المسلمين، ومن العسير علينا

(*) مذهب الحرية الاقتصادية المعارضة لتدخّل الدولة . (م . م .)

(**) بمعنى المخالفين لعقيدة الدولة الرسمية . فكم من مرّة رأينا امبراطوراً يخالف سالفه ويضطهد الآخرين، إن كان بالنسبة لعبادة الايقونات أو ماهية السيد المسيح أو غيرها من الأمور الدينية . (م . م .)

حالياً، أن ندرك هذا الأمر اليسير والجوهري معاً، في عصرنا هذا، بمنطقه الأبتر. وتهدف قاعدته، التي تعبّر عن شكلٍ من أشكال الديمقراطية المناقبية، في نهاية المطاف الى المساواة في الحقوق المدنية (مما يعلّل، والى درجة كبيرة، التسارع المذهل للتوسع الاسلامي)، محددةً علاقات السيد بعبده والملاّك بالمزارع (الأكار) والمسلم بالذمّي، كما انها لم تحجب عن أيّ طرفٍ من الأطراف فرص الإرتقاء، حتى أنها تغاضت عن الخصيان فأدركوا أعلى المناصب، وكذلك أفسحت المجال أمام اليهود أو المسيحيين فتمتّعوا بمختلف امتيازات الثروة والجاه. ويذهلنا الإسلام كظاهرة فريدة في نوعها بمفارقته، وبخلاف مازعمه البعض، فهو بيئة فردانية، تحافظ على قدر الانسان كانسان... وما الظاهرة المعاصرة التي ترفض مبدأ التعادل الطبقي الماركسي إلا من باب الدفاع عن الذات.

وباحتلالهم اسبانية، التزم عرب الأندلس، ولانتردد في الجهر بذلك، بما ندعوه حالياً اعلان حقوق الإنسان: وفي الحقيقة، التزموا بمبادئه دائماً، وكانوا أكثر أمانةً لها وأكبر انسجاماً مع أنفسهم، إذا ماقُورنوا بأولئك الموقعّين على المواثيق الطنّانة، في قرننا العشرين هذا، حيث استطاع اليهود والمسيحيون والأقباط أن يمارسوا شعائرهم الدينية بكل حريّة، كما أن أرباب ديانتهم كانوا موضع إكرام لدى المسلمين أنفسهم. أما بعض حالات الاضطهاد الاستثنائية، في عصر ملوك الطوائف، فيمكننا عزوها الى تجاوزات بعض المسيحيين، ضحايا نوبات التعصب، وسأعمل على عرض دوافعها، بعد قليل. وأدان الاساقفة الاسبانيون أنفسهم هذا العنف الجامح الموّجه الى القرآن والمسلمين. وعادت الأمور الى نصابها، بعد ارتقاء عبد الرحمن الثالث (الناصر) الشهير بصفحه. وعرفت كل المجتمعات وفي

مختلف العصور بعض أولئك الحمقى، كشرٍ لابدّ منه، لأنهم سيصبحون عاجلاً أم آجلاً أفضل الأنصار لتجميع الحكماء.

الضريبة التمييزّية:

قد يردّ بعضهم زاعماً أن الاسلام ولو أنه لم يقم جهاراً بحملةٍ لهدي اليهود والأقباط والمسيحيين الى الديانة الاسلامية، فقد ضيّق عليهم بطريقة غير مباشرة، بمشاركته إياهم في كيس نقودهم، ذلك الوتر الحسّاس. هذا صحيح! حيث أدّى أهل الذّمة ضريبة خاصة عن كل فردٍ (الجزية م. م.)، إضافةً لضريبة عقارية أعفِي منها الملاّكون المسلمون(*): تلك المعاملة التباينيّة تنسف المادة الرابعة من الدستور السويسري، التي تنص على المساواة بين المواطنين أمام القانون. ولكن كان ذلك منذ ألف سنة... أما المسيحيون (الغربيون) فكانوا ينصّرون الآخرين بقوّة السلاح، وهنا لابدّ من الاعتراف أن المسلمين كانوا أكثر براعةً.

أما الوثنيون المشركون فقد أسلموا بأجمعهم (وقد أُكرِهوا على ذلك، وهذا طبيعي، إذ لم يكونوا أصحاب كتاب: فمثلاً بصدد الموضوع الضريبي، أُلزموا بدفع العشور، وثقل هذه الضريبة أفدح من الضرائب

(*) فرض العرب الفاتحون منذ البداية نوعين من الضرائب على أهل البلاد المفتوحة هما: الجزية (ضريبة الرأس) والخراج، (ضريبة الأرض). وقد جاء ذكر الجزية صريحاً في القرآن الكريم بأنها عنوان خضوع غير المسلم للمسلمين. (سورة التوبة، ٣٠)، وأما الخراج، فقد فرضه عمر بن الخطاب، ولم يأت به نص قرآني كما هو الحال في الجزية، وذلك لأن الأرض العربية التي خضعت للرسول كانت لاتدفع سوى العشر، الذي يدفعه المسلم على محاصيله وثماره على أنها زكاة أو صدقة. ومع أن الخراج والعشر هما ضرائب الزروع والثمار، فيختلف العشر عن الخراج بأن العشر ثابت لايجوز زيادته بينما الخراج يزيد أو ينقص. وواضح من سياق النص أن الكاتب لايميّز جيداً بين مختلف هذه الضرائب (م. م.)

الأخرى(*) وأسلم مع هؤلاء الوثنين عدد كبير من المسيحيين، بخلاف اليهود الذين لم يسلم منهم إلا ماندر. ولاجدوى من طرح السؤال إن كان ايمان اليهود أكثر رسوخاً من المسيحيين، فهذا ليس بالأمر المهم، فاليهود، ببساطة، لم يهتموا بملكية العقار ولم يجعلوا الأرض مطلقاً أساس ثروتهم(**)، وعلى كلٍ، لاأعتقد أن هذا الأمر كان الدافع لعدم اسلامهم.

أما اليهود، فقد لعبوا دوراً كبيراً في ازدهار الأندلس. وفي الحقيقة ليس بإمكان المرء أن يتصوّر سوقاً تجارية أو مصرفاً أو تجارة دولية بدونهم. وبعد أن كانوا مضطهدين سابقاً أيام الويز يقوط: ظهروا بأعداد كبيرة في ظلّ الأمراء العرب الأثرياء والمتسامحين، وكان لهم القسط الأوفر في عملية ازدهار الأندلس. ولم يصل الحمق بالحكام العرب كالويز يقوط لابعاد اليهود عن الساحة.

وعندما نتكلم عن اليهود، لابدّ من ذكر المال، وهذا الازدهار الاقتصادي الذي ساهموا الى درجةٍ كبيرة في تحقيقه، قد اعتمد أصلاً على نظامٍ نقدي متين. واعتمدت مختلف العمليات الحسابية قيمة الدينار البغدادي(***)، ذي الصيت الذائع والثابت كالتشريع القرآني. ويعادل حالياً اثني عشر فرنكاً ذهبياً.

(*) كما قلنا في الملاحظة الهامشية السابقة، لايميّز الكاتب بين مختلف أنواع الضرائب.. فالجزية هي (ضريبة الرأس) وتؤخذ على الرجال البالغين العاقلين. وقد أمر عمر بن الخطاب أن لاتؤخذ إلا على من جرت عليه الموسى، أي استثنى منها الصبيان والنساء و لاجزية على الفقير غير المعتمل، لعجزه عن دفعها. والخراج (ضريبة الأرض) ضريبة الأراضي المفتوحة التي تُركت بيد أصحابها، لأنها اعتبرت ملكاً للأمة تعود لبيت المال (م.م.)

(**) اليهود دفعوا فقط الجزية لعدم امتلاكهم الأرض. أما العشور فدفعها المسلم على محاصيله وثماره على أنها زكاة أو صدقة، ولايميّز الكاتب بين العشور وغيرها من الضرائب(م.م.).

(***) لايعني هذا أنه لم يكن للأندلسيين نقدهم الخاص بهم. وقد اعتمدوا الدينار البغدادي (العبّاسي) لتسهيل أمور تجارتهم الدولية العبّاسية وغيرها من إمارات العالم الاسلامي كالفاطميين وغيرهم. (م.م.).

وبذلك أصبح لسعر الحاجيات ولقيمة المقايضات والمال المُدخَّر والقرض بفائدة وعمليات الاستثمار ودخل الفرد قاعدة سليمة. ومن السهل علينا حالياً أن نقدّر موارد الأندلس بالنسبة الى صعوبة ذلك لأي مجتمع في العصر الوسيط. لاشك في أن التشبيه ليس بحجة، ومع ذلك، فيمكننا أن نكوّن صورةً عن هذا الازدهار الخارق عندما نتذكّر أن مجموع دخل دولة قرطبة من الضرائب والمكوس والرسوم الجمركية ومؤسسات الحصر (ملح، بارود، سكر، الخ...) بلغ أربعين مليون ديناراً أو ما يعادل أربعمائة وثمانين مليون فرنكاً ذهبياً (وهو مجموع موازنة الاتحاد السويسري قبل الحرب العالمية الثانية، وطبعاً لاجدوى من ذكر مجموع الموازنة الحالية وهو عام طبع الكتاب عام ١٩٨١ م.م.). وعلاوةً على ذلك، جبى الخلفاء لحساب خزينتهم الشخصية، ريع الأملاك التي ورثوها عن الملوك الويزيقوط(*) (القوط الغربيين م.م.)، ومايعادل سنوياً عدة ملايين من الدنانير، ووُزِّع ربعها على المعوزين، متجاوزين في ذلك القاعدة القرآنية(**)، وبذلك أصبحت الشحاذة غريبة على دولة قرطبة... (أما هذا الإشكال فكان شائعاً في سائر أنحاء أوروبة الغربية. وفي حين أن بعض الباحثين قد قدّروا وبحقٍ انه إن كان دخل هارون الرشيد قد بلغ ثلاثمئة وثمانين مليون فرنكاً ذهبياً، كان دخل معاصره شارلمان تافهاً وكاد أن يصل

(*) المقصود هنا أرض الصوافي وتكون من أرض ملوك الفرس والبيزنطيين والويزيقوط وغيرهم من النبلاء الذين قتلوا أثناء معارك الفتح أو هربوا. واعتبرت هذا الأرضي صافية لبيت المال يتصرّف بها الخليفة حسب تقديره (م.م.).

(**) لايميّز الكاتب هنا بين أرض الصوافي والخمس المنصوص عليها في القرآن الكريم، (سورة الأنفال، ١٤١: «واعلموا انما غنتم من شيءٍ فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل..» والتجاوز بحسب رأي الكاتب هو أن الربع اكبر من الخمس، ومن عدم تميزه بين الاثنين (م.م.).

الى واحد بالمئة (١٪) من دخل هارون الرشيد، ووجب علينا انتظار القرن الخامس عشر لنتأكد من دخل ملك فرنسة، الذي لم يتجاوز مليون وثمانمئة ألف فرنك ذهبي.)

القشّة والعارضة(*)

أما نحن، فكيف كانت شروط عيشنا في الجهة المقابلة لجبال البرنس(**)، على هامش العيشة الهنيئة تلك؟ هل بامكان أحدنا أن يتصوّر ذلك دون أن يعتريه الخجل ويتلعثم في الحديث... علماً أن الدلائل والشواهد وافرة: لقد عمّ البؤس بين الناس وانتشر الطاعون وأطبق الجهل عليهم. وراحت قطعان الذئاب تعيث فساداً في الأرياف المهملة. وكانت المرابط (محطات الإبدال) نادرة على الطرق المؤدية الى روما (ويرقى المثل السائر الى تلك الفترة)(***)، تلك الطرق التي يحوّلها المطر الى رداغ (مواضع للوحل)، ولا وجود للفنادق اللائقة اضافة للمهالك التي يقاسيها المسافر بين حينٍ وآخر. ويحدثنا مؤرخونا أن الحجّاج قد افتقروا الى الماء والخبز بين مدينتي ليون وتورينو.

وانكفأ الناس الى القصور المحصنّة والأديرة ملتمسين الملاذ والقوت، وليضمنوا حماية سادتهم من مدنيين ودينيّين عاد الفلاحون الأحرار الى حالة القنانة، بعد أن تنازلوا لحماتهم عن أراضيهم. وأسهب كتّابنا في سرد أخبار

(*) يقول مثلنا: (يرى القشّة في عين جاره ولا يرى العارضة في عينه) بمعنى ينتقد أقل نقائص الآخرين وينسى نقائصه الأخطر والأكبر(م.م.).

(**) وهي الجبال التي تشكّل الحدود الفاصلة بين اسبانية وفرنسة، والمقصود هنا أوروبة الغربية المتخلفة مقابل بلاد الأندلس المتحضرّة (م.م.)

(***) يقول مثلهم الغربي السائر: «جميع الطرق تؤدي الى روما»، بصفتها سابقاً عاصمة الامبراطورية الرومانية ولاحقاً حاضرة العالم المسيحي الغربي. ونقول نحن: «كل الطرق تؤدي الى الطاحون.(م.م.).

هذا المصائب ليتّهموا، في نهاية المطاف، الساراكنس (العرب المغاربةم. م). طبعاً! لابدّ من كبش فداء.

قضية التشويه هذه هي صنيع اخبارييّنا القروسطيين. ولكن هذا الانسان، انساننا في تلك الفترة القانط والمحاصَر، فما هو موقفه وكيف كانت استجابته؟ كان موقفه المعنوي صريحاً، وهو التهرّب من المسؤولية أو بالأحرى الهروب من واقعه، لاسيّما بعد انتزاع ملكيته وانسحاقه تحت وطأة الأحداث. فتوجّه، والحالة هذه من التفاقم المادي، الى المجهول، الى الفوطبيعي (فوق الطبيعي)، وكان أن احتضنته الكنيسة لتعلّله بالأوهام.

وانحصر الأمر حينئذٍ بالمعجزات وبرفات القديسيّن، ذاتية الحركة، وبتجليّات (وعندئذٍ يصبح تعبير «الدين افيون الشعب» صحيحاً كل الصحة). وخلال تلك الفترة، أغنت نوبات التصوّف السنكسار (جامع اسماء الشهداء وسائر القديسين م. م). ونموذجها الأفضل في هذا الميدان بارونيوس، حيث كان الاستشهاد عنوان العصر، إذ وصل الأمر بهذا المخلوق المسكين لأن يلقى بنفسه قدّام الموري (عربي المغرب) شاهراً معوله، لعلّه ينال الشهادة... هكذا كان الحال... ولاشك في أن سيرة القديسة أوزابية هي أفضل تعبير عن ذلك. (وكم كان بودّنا أن نحيط بخضوع هذا الكائن البشري وهو يلطّف غمرات الاستشهاد، بهذا التعلق الخارجي للإحساس. قد نجد شبهاً لذلك بعملية التأبير (المعالجة بوخز الإبر). ولاجرم أن الذي يحلّل الظاهرة على الوجه الأكمل، هو الكاتب ساوربروخ في مذكراته: فالجندي الجريح الذي يسرد وقائع المعركة يعيش ظروفها الى درجةٍ أتاحت للطبيب الجرّاح أن يبتر ذراعه بدون تخدير. ولكن الصعوبة الأولى التي تعترض سبيلنا هي معرفة ماهية الألم حينذاك، وإن كان بامكاننا قياس

حدّته! إذ يزداد الألم، كما نعلم، مع تيقّظ الاحساس والشعور بالذات. ولايمكننا بحال من الأحوال أن نحلّ محل المعذّب، فحيرتنا تزيل تماماً واقعية هذا الاستذكار وتحرمنا عزاء استرداد جلدنا الغض الحالي.

أولاً: اطلاق النار(*) (الضرب):

والحقيقة الخالصة التي لايمكن نكرانها مطلقاً، هي أن العرب لم يكنّوا، في أول الأمر، أي عداء لتنظيماتنا الدينية، ولاداعي للقول أنهم تجنّبوا تعريض السكان المسيحيين (الغربيين) للخطر. وعندما دكّوا حصون الأديرة، التي كانت بأغلبها مواضع محصّنة، كانوا يمارسون عملاً حربياً بحتاً. وإن كانوا قد اغتصبوا راهبات، فلكونهّن نساءً وحسب في نظرهم، ولاستخفافهم بالنساء على العموم(**)، زد على ذلك، ان هذا الكاتب أو ذاك، وقد غاب عن ذهنهما لحظةً هدف الاساءة الى العرب، لايتحدثان عن حالات اغتصاب بل يعترفان ان نيتهم الحقيقة كانت الزواج بهنّ، مما ينفي عنهم تهمة الإغتصاب، لاسيّما أن ديانتهم سمحت بتعدد الزوجات. واحترم العرب عقائدنا وأجلّوا كتبنا المقدسة (وسنوضح هذه النقطة في معرض حديثنا عن اسر رئيس ديركلوني)(***). وبالنسبة لعقائدنا، اختلط الأمر آنذاك على العرب عندما ظنّوا أنها نفس عقائدهم أو قريبة منها، لما

(*) يقول الكاتب حرفياً: أولاً، اطلقوا النار، علماً أن الأسلحة النارية لم تكن معروفة آنذاك. (م.م.)

(**) هذا غير صحيح ونحن نعرف كيف انصف الاسلام المرأة (م.م.)

(***) دير شهير في في فرنسة، جرى تأسيسه عام ٩١٠ ميلادي (م.م.)

التبس عليهم الأمر بالنسبة لكتبنا المقدسّة (المقصود هنا) الأناجيل م . م .) فلم يميّزوها من القرآن(*) . والحالة هذه، فهل يمكننا أن نصدّق بأنهم قاموا بخلع أبواب بيت القربان أو مزقّوا الأنجيل؟ كلا! أبداً، وإن حدث ذلك، فلم يكن من باب تدنيس القدسيّات. وكان على بُوْشِه، وهو علاّمة في اللاهوت، أن يقيم وزناً لهذا الاعتبار، إذ أن مفهوم الحرب الدينية(**) لم يظهر إلا في وقت لاحق.

ولكن بدلاً من محاولة فهمهم والتماس التعايش معهم بحسن نيّة، آثر أسلافنا محاربتهم، معتبرين ذلك التقوى بعينها، وأظن أن هذا الموقف الذي عنُيت به الكنيسة (الغربيةم . م) كان السبب في إفساد علاقاتنا معهم، ومن هنا اعلان الكنيسة لأسلافنا: «اطلقوا النار أولاً ثم استوضحوا عن الأمر»، وهكذا كان . . .

العيش مع العرب

ـ السلام عليكم

ويبدو أن من بادرهم بلغتهم اسرعوا بالرّد عليه متهكّمين:

ـ أخزتك السماء . . هذا مايزعمه اخباريّونا، أما أنا، فاظنّ أن من يتعرّف اليهم نوعاً مايتلقى الجواب التالي:

ـ صحة جيدة، ايها الغريب . . . ولايجد المرء صعوبة كبيرة للتفاهم

(*) رغم حسن نية الكاتب، كما نلاحظه من سياق حديثه العام، نراه آحياناً لايميّز بعض الأمور في تاريخنا. نحن نعلم أن القرآن اعترف بالكتب السماوية الأخرى ولكن هذا لايعني أن القرآن ـ كما يقول الكاتب ـ في نظر العرب المسلمين كان والأناجيل أو التوراة شيئاً واحداً. (م . م .).

(**) يشير الكاتب الى الحملات الصليبية على عالمنا العربي بعد قرنين من الزمن (م . م)

معهم أو لاتخاذهم أصدقاء ـ وهذا مابرع فيه بعض امرائنا، مع احتمال خديعتهم فيما بعد، بشكل سافلٍ، دون أي رهبة من كرسي الاعتراف، إذ ان الأمر لايعدو عن كونهم اعداء العقيدة المسيحية (الغربية م . م .) الألداء. وافترض أيضاً أن التفاهم بين الطرفين لم يكن بحاجة إلا لبعض المفردات.

فلم تكن الحركات الطبيعية، كتقديم الماء أو الملح، بحاجة الى إيضاحات. (ولم يزعم أحدهم أن القديس مايول قد عرف لغتهم أو أنهم فهموا لغته، ومع ذلك سنرى أنهم، وبسرعة فائقة، قد اعتبرونه جديراً بتقديرهم، بل لقد ذهب بعضهم الى حدّ الافتراض أن القديس مايول، وخلال اسره القصير، أفلح في تنصير هذا أو ذاك من خاطفيه).

من هم هؤلاء العرب؟

لقد تحسّنت نظرتنا اليهم الآن: فليسوا سوى بشرٍ مثلنا، يتأثرون بسرعة الى درجةِ نشوء التعاطف منذ الوهلة الأولى، والأمر الأوحد الذي يلزم أن نتجنبه هو عدم صفق الباب في وجههم، الأمر الذي يصدم حسّهم المرهف للضيافة . . . وإلا فيهرع جميع جنِّة الصحراء، غاضبين، ليرفعوا ساعد مُهانِناً هذا، القابض على سيفه الضلَع، وتتعاقب الضربات تلقائياً . . . نعم، هذا هو تفسير بعض ردود فعلهم القاسية. نعم، بدلاً من أن نعمل على ايقاظ كرم أخلاقهم، ألهبنا ضغينتهم.

وفضلاً عن ذلك. فعندما نراقبهم عن كثبٍ، نكتشف أناساً مدهشين، أسرهم سحر ديانتهم فلم يعيروا أي اهتمام لديانة الغير، يؤدون شعائرهم

ويمارسون عقيدتهم بدقةٍ لم يكن لنا عهدٌ بها، بطريقةٍ تجعلنا مشدوهين أمام عبقرية محمد. . . هاهم أمامنا أولاء الشرقيون الذي طُبِعوا على القذارة والكسل(*)، لاينقطعون لاعن الوضوء ولا عن تمارين التطرية (الصلاةم. م.) المفيدة لجوف الإنسان. حُرِّم عليهم أكل لحم الخنزير الضارة بصحة الإنسان، بسبب الطفيليات العالقة بالحيوان، وكذلك المسكرات بعد أن لاحظوا أنها تعمل بسرعة أكبر على فقد رشد الساميين(**).

ويكتشف المرء، بعد الاحتكاك بهم جيداً، انهم خاليو البال من المعصية الأصلية(***)، وكذلك من خطايا الجسد الشنيعة، التي مازالت تصدم مسيحيينا في مرحلة الطفولة. ولايثير عضوهم التناسلي أثناء تطهيره في شتّى المناسبات أية مسألة أكبر من غسل أنفهم وأقدامهم(****). نعم، قد لايكون هذا المشهد في غاية اللياقة(*****)، ولكنهم عندما كانوا يصلّون، يظهر على شفاههم شكل من الرموز التعزيمية، انها كلمة الله التي اعوزتنا.

وبالنسبة الى الأسس اليهودية أو المسيحية التي ألهمت الرسول

(*) أراد الكاتب أن يمدح العرب المسلمين فدمغ الشرقيين ومن ضمنهم عرب ماقبل الاسلام بهذه الصفات. وعوضاً عن بحثه عن الأسباب، اكتفى بالحكم على المظاهر. ولكن، هل يُطبع قومٌ والى الأبد بخصال مطلقة خالدة حتى ولو تغيرت الأحوال المادية؟(م.م)

(**) تسمية الساميين نسبة الى سام بن نوح، وهي تسمية حديثة ترقى الى القرن الثامن عشر للميلاد والمقصود بها مختلف أقوام الوطن العربي منذ القدم وحتى الآن. والتسمية غير علمية واستغلّها الصهاينة عندما حشروا أنفسهم ضمن الساميين. (م.م.)

(***) المقصود هنا معصية آدم وحواء بعد أكلهم من الشجرة المحرمة، ويتحرّر المؤمن منها بتقواه وطاعة ربّه. (م.م.)

(****) وقيل «لاحياء في الدين» (م.م.)

(*****) وكأن الناس كانوا يتطهرون علانية، وكأن كاتبنا لم يسمع كلمة (العورة)(م.م.)

العربي(*)، كان القرآن، بلا ريب، اكثر حداثةً وديمقراطيةً، وقواعده الصحيّة اكثر تقدماً، حيث بلغ الكمال في هذا المجال. وعلينا أن نعترف في عصرنا هذا المسكوني، الى درجةٍ مطلقة، ان ماأخفقنا في ادراكه هو هذا الخط المدهش، الذي لم نحتفظ منه إلا بالأرقام(**)، وما أسهل استعمالها مقارنة بصعوبة الأرقام الرومانية (اللاتينية م. م.) وليست كتابتهم (العربيةم. م.) سوى هذا التعبير الرمزي عن الممتنع الغامض، انهاهذا السّر الخفي الذي حصرناه بقوالب جامدة، أخفقت في مواجهة الفكر المعاصر. هذه اللغة السرمدية، المنيعة عن المنطق التجريبي، انها كلمة الله الناطقة، الصيغة الفصحى للفعل، المعبّرة عن الفكر. كان بوسعنا، وبكل تأكيد، أن نقتبس منها بَدَائِه مذهلة، دون أن نقع في حبائل التسويات التبسيطية للنساطرة وغيرهم من الانحرافيين(***). (واهاً ثم واهاً على الاسلوب المقتضب الجاف لفُولتِر(1) أو أناتول فرَنْس(2)، النموذجين المعظّمين مابين كتّابنا. حتى أنطوان سان أكسُوبري(3) العظيم! ألم يتمزّق بعد أن حبط جهده

(*) نحن نعلم أن القرآن جاء على ذكر التوراة والإنجيل كما أن الرسول عاصر اليهود والنصارى، ولكن أن يكون التنزيل الحكيم قد تأثر بذلك ـ كما يقول الكاتب ـ فهذا مالانعلمه. وكما قالوا: والله أعلم (م. م.)

(**) لقد عرف العرب المسلمون الأرقام الذائعة في العالم والمعروفة لديهم بالأرقام العربية، بنظامها العشري والصفر، وانتقلت الى الغرب اعتباراً من القرن العاشر للميلاد عبر الأندلس وصقلية فكلمة chiffre الفرنسية مأخوذة عن (سفرا) الايطالية المنقولة عن صفر العربية.

(***) نسبة الى نسطوريوس، بطريرك القسطنطينية (٤٢٨-٤٣٠)، حرمه مجمع افسوس المسكوني (٤٣١) وأضطُهِدَ اتباعه (م. م.).

(1) مفكر فرنسي (١٦٩٤-١٧٧٨)، اشتهر بنقده للسلطات الدينية والمدنية. مهّد السبيل الى نشوء الثورة الفرنسية. من مؤلفاته «المحاورات الفلسفية» «كنديد» «زئير» الخ (م. م.)

(2) كاتب فرنسي (١٨٤٤-١٩٢٤)، اشتهر باسلوبه الساخر والنقدي. (م. م.)

(3) كاتب فرنسي (١٩٠٠-١٩٤٤)، اشتهر بنقده للمجتمع المعاصر، المفرط بتقنيته، اشتهر بكتابه «الأمير الصغير» (م. م.)

في ابتكار اسلوب لغوي جديد. على كلٍ، فما عليكم سوى أن تطالعوا مايكتبون، أو تنصتوا الى مايجري حالياً، الى ضوضاء طرائق التعبير الجديدة. يجهدون النفس في الإشارة الى قضايا مازالت غامضة في ذهنهم، بصيغٍ لغوية معقدّة، اضافةً لعديدٍ من الألفاظ الجديدة أو لعبارات لم يقرّها الجميع أو لم تجزها المجامع اللغوية. وتشمل هذه الرطانة مختلف العلوم المفترضة متفشيّة بكثافة على هامش انسانيتنا الجديرة بعنوانها هذا. إن عزاءنا لعظيم عندما نقرأ باسكال[1] ثانيةً، بعد شيوع هذا الهذيان، حيث يبدو لنا باسكال أكثر اشراقاً، على الرغم من الثورة العلمية التي ننفرد بها. حقاً! قلّما نتقدّم... وكذا بالنسبة لفن الرسم المعاصر، الذي أعفى نفسه من التعبير عن فكرةٍ ما، بل أسقط من حسابه مفهوم الفن ذاته: فلكل مشاهد دهشته الخاصة به وهو بين يدي المشهد... حقاً لاأدري! هل أنا الوحيد الذي يعلن أننا أضعنا الفرصة المناسبة عندما لم يعمل أسلافنا على أن يدمجوا في وجداننا واسلوبنا الفكر الخلاّق للعرب المسلمين، فيتوسّع دفعةً واحدة مستقبلنا العقلي. ـ ولا أدري، هل فاتنا حقاً الأوان؟)

وبالاختصار، توقّف الأمر على اسلافنا فقط ليعيشوا بوفاقٍ مع الموريين (عرب المغرب م. م.)، وعلى المرء أن يكون حقاً بليد العقل ليثابر زاعماً أن الموريين كانوا البرابرة على النقيض من أسلافنا نحن الثقيفين.

وعندما جعلتهم الكنيسة (الغربية) كائنات شريرة، ملعونة تاريخياً،

---

(١) كاتب فرنسي (١٦٢٣-١٦٦٢)، من نوابغ زمانه بالحساب والفيزياء والأدب والفلسفة. لايزال تأثيره الديني والفلسفي عميقاً في الفكر المعاصر، بفضل كتاب «الأفكار» (م. م.)

لم يكن ذلك من قبلها سوى محاولة قاسرة، تبدو بواعثها حالياً ضعيفة الاقناع.

وخلاصة القول، فمنذ أن لاح طيفهم لنا، بذلنا كل ما في وسعنا لنستدرجهم الى النزاع وشرّعنا الأبواب لعمليات ثأرهم، بعدأن رفضنا مصالحتهم، بطريقةٍ حرمتنا من فهمهم بشكل أفضل وأضاعت علينا في الوقت نفسه فرص تحقيق مغانم مادية عظيمة. أما البقية الباقية من المشكلة، فليست سوى حكاية عصيّة على التحليل، لرجال شرطة ولصوص، مدبّرة لمقتضيات الحاجة، حيث من العسير علينا أن نميّز الصحيح من المزوّر.

الفصل الثاني

خرافة شارل مارتل

البلبلة:

يقول جاك بيِرن[1]: بالنسبة للغرب «يتزامن ارتقاء الكاولنجيين مع انهيار تام للحضارة»

مامن صفحةٍ من صفحات سجل القرون الثلاثة الأخيرة للألف الأول من الغرب، يمكن الاطمئنان اليها، إذ ليس بحوزتنا حالياً سوى وثائق نادرة مباشرة. وقد وضِعَت بأجمعها من قِبل رجال الكنيسة أو كتّاب ورعين. أما عمليات الإنشاء اللاحقة ككتابات بارونيوس أو نوستوادامـوس[2]، والتي غدت فيما بعد مصادرنا الأساسية، فليست في أغلب الحالات سوى حدسيات مغرضة. انني استغرب نهج كتّابنا المعاصرين: تسرعّهم باعتماد الوقائع والأسماء والتواريخ وكذلك ارتباط النتائج بأسبابها.

ويذهلني حقاً هؤلاء الكتّاب باستنتاجاتهم الحاسمة، ولاأدري كيف أمكنهم المضي قدماً بهذه السهولة؟ يرسم لنا بابُون(*) لوحة محزنة للأوضاع

---

(١) هو ابن المؤرخ البلجيكي هنري بيرن (١٨٦٢-١٩٣٥) الشهير بمؤلفه «**محمد وشارلمان**».

(٢) من كتّاب عصر النهضة الأوروبية، وقد اشتهر هذا الأخير بتكهناته المستقبلية (م.م.).

(*) ورد ذكر اسم هذا الكاتب في المدخل سابقاً (م.م.).

العامة في بلاد الغال(*)، في القرن الثامن، ويوضح قائلاً: «يبدو ان الفوضى المتفشيّة في المملكة قد شجّعت على قحة الأتباع، فراح حكّام المقاطعات يتصرّفون بلا وازع قانوني ولارداع اخلاقي» أما مرشدي الأفضل لتلك الحقبة فهو النبيل بُوشهِ(**)، الذي يرثى لهذا الخلل وللنقص الفاضح في المصادر، حيث يقول: «بما أن عدد الأساقفة المخلصين كان محدوداً، وضع الأفراد العاميّؤن وكهنة غيرقانونيين يدهم على الاسقفيات وراحوا يتصرّفون بأمورها وفقاً لأهوائهم، ولعدم اجتماع المجامع المسكونية القادرة على اعادة الأمور الى نصابها، وقلة عدد الكتّاب لتسجيل الأحداث الكنسية والمدنيّة لتلك الحقبة، أطلقوا بابتذال على هذا القرن وتاليه اسم عصور الجهل[1]».

وزاد الطين بلةً عندما سعى الموريون (عرب المغرب) وبسرعةٍ فائقة لتجاوز جبال البرنس، منطلقين على مانعتقد، من أنه من حقهم الشرعي - وقد حلّوا في اسبانية محلّ السلطان الويزيقوطي المغلوب - أن يضعوا يدهم على ممتلكاته القديمة، ومن ضمنها سبتيمانية[2] ومناطق أخرى (وظلّل مؤرخونا جميع هذه المناطق على مصوراتهم حيث نجدها ممتدّة حتى التخوم

(*) أطلق هذا الأسم قديماً على فرنسة مع بعض الأطراف البلجيكية والسويسرية، نسبةً الى قبائل الغال، ذات الأصل الكلتي (م.م.)

(**) ورد اسم هذا الكاتب ومؤلفه في المدخل سابقاً (م.م.)

(١) لهذا التعبير صلة بالبنى الاجتماعية والجغرافية لذلك العصر، حيث لايستخدم الاخباري بُوشهِ إلا مفردات محدّدة ليشير الى مواقع الأحداث كأبرشيات واسقفيات واديرة إضافةً لمدن شبه مستقلة كمرسيلية وإكس وناربون (مدن في فرنسة الجنوبية)، الخ.. وكأنه لم يكن للأفراد مناطق إقامة (أوطان) سوى المذكورة أعلاه (المؤلف).

(٢) مقاطعة ساحلية في جنوب غربي فرنسة واقعة بين نهر الرون وجبال البرنس: سيطر عليها الويزيقوط ولذلك اشتهرت أيضاً باسم «قُوطية» وعُرفت في القرن العاشر باسم «دوقية ناربون» (م.م.)

الجنوبية لمقاطعتي لانغدُق وبُروفَنْسَة(*). ومما لاشك فيه، ان تصوراتنا حول توغل عرب المغرب في منطقة نفوذ العالم المسيحي (الغربي)، لاأساس لها من الصحة. فما خلابعض الصولات الكثيفة، ذات المقاصد السياسية، لايعدو الأمر أن ينحصر بشكل من أشكال الانسلال غير المتعمّد، أبانها المؤرخون ببعض الوقائع النموذجية، ضعيفة المدلول، في أغلب الحالات. وتعود محاولتهم الأولى المشهورة الى عام ٧٢١ أو ٧٢٢ (عشر سنوات بعد اعلان سلطة أمراء طليطلة)(**) وأدّت بهم، بلا قتال، الى مدينة تولوز (طلوشة عند العرب م. م.). ويقال أن الذي أحبط خططهم هو أودو، دوق اكيتانية(١)، في ظروف متنازع فيها. ورواية كاتبنا بُوشِه حول هذه الواقعة تليق تماماً برابلِه(٢)، حيث يقول: «ثم أن أودو، دوق اكيتانية، وهو من سلالة الويزيقوط، برز من فلول أمته المغلوبة وفي خضم أحوال فرنسة المضطربة، ومابين حكّام الممالك، عظم شأنه بصورة مذهلة، فعزّز مكانته، وقد أدرك

(*) مقاطعتان في جنوب غربي فرنسة متاخمتان لجبال البرنس التي تفصل فرنسة عن اسبانية(م. م.).

(**) هنا تعبير الكاتب غير دقيق، والمقصود بأمراء طليطلة هو عصر الولاة في الأندلس ويبدأ بتعيين (أيوب بن حبيب اللخمي في عام ٩٧ هجري/ ٧١٦ ميلادي) وينتهي بدخول (عبد الرحمن بن معاوية بن هشام المعروف بالداخل) والمؤسس للإمارة الأموية، قرطبة في عام ١٣٨ هجري/ ٧٥٦ ميلادي. وكما نرى تاريخ الواقعة غير الدقيق ايضاً(م. م.)

(١) أوتو، أودو، أودوينُس، أوْدْ وفي النهاية أوْدِس. ويطلق هذا الشخص الطموح اسم «ملك الفرنسيين» على نفسه وذلك في بعض الوثائق من الجلد (المؤلف). ويُطلق اسم اكيتانية على مقاطعة شاسعة في جنوب غربي فرنسة وحاضرتها مدينة تولوز، وتغطي بشكل أو بآخر بلاد سبتمانية المذكورة أعلاه. وشكلت هذه البلاد في حقبات تاريخية معينّة مملكة مستقلة، قبل أن تنضم نهائياً، اعتباراً من القرن السادس عشر، الى المملكة الفرنسية(م. م.)

(٢) كاتب فرنسي (١٤٩٤-١٥٥٣). امتاز في عصر النهضة الأوربية باحياء المثال الأعلى في الفلسفة والأدب آخذاً بتآليف الأقدمين من اغريق ولاتين. مزج الجدّ بالهزل في كتبه وأشهرها: **«سيرة غارغانتوا»** و **«مغامرات بانتاغرويل»** (م. م.)

نيّة البربري (المقصود هنا عرب المغرب) الذي كان يقصد إذلاله والقضاء عليه، في نهاية المطاف، ولاتقاء هجوم ضيفٍ من هذا المعيار، توجّه للقائه، في موقع غريبٍ، ولكونه صديق أهل تولوز، حشد قواته بسرعةٍ فائقة وأسرع بدون هوادة نحو تولوز لمواجهته. وبعد أن علم البربري بقدومه هرع لملاقاته، فكانت الواقعة وجرت معركة عنيفة رجحت فيها كفّة أودو الذي حالفه النصر واندحرزاما (كما ذكرناه أعلاه هو السمح بن مالك الخولاني، الوالي على الأندلس، ١٠٠-١٠٢ هجري/ ٧١٩-٧٢١ ميلادي م. م.) وقضى نحبه في ساحة الوغى مع عددٍ كبيرٍ من رجاله».

وبحسب مصادر أخرى، ردّ أودِس الغزاة دون اراقة دمٍ كبرى، بينما زعم آخرون، ان الأمر اقتصر فقط على اقناعهم بالإنسحاب، وانها لفرضية صعبة التصديق. والأمر المحقق هو ان أودو قد أقام علاقات سرّية مع الأعداء، كما أن زوجته كانت عربية مسلمة (وقيل أن معاملته لها كانت جدقاسية).

وفي عام ٧٢٥، وهو تاريخ مشكوك فيه كغيره من التواريخ، أعادوا الكرّة بعنفٍ اكبر، وكان الى جانب العرب حينئذٍ الويزيقوط الذين اعتنقوا الاسلام.

والله أعلم بالتدابير التي اتخذها هؤلاء مع هذا المرء ذي التصرف الغريب والمدعو أوتو أوأودِس، والذي أهملت ذكره كتبنا التاريخية الموجزة. وكيف يمكن أن نصدق مازغمه البعض، ان عدد الغزاة بلغ أربعمئة ألف نسمة، مزوّدين باثاثهم المنزلي ومعهم حشدٌ من النساء، بهدف الاستقرار النهائي في البلدان المفتوحة. وكأننا أمام نزوحٍ سكّاني واسع النطاق.

ويجزم أغلب الأخباريين القدماء بأن أودِس قد جذبهم الى أكيتانية

ليحبط مقاصد شارل مارتل التوسعية، والذي يكّن له أشدّ العداء. وهذا الرأي مقبول، إذ يتفق الجميع على القول، ان شارل مارتل قد حاول عبثاً اخضاع أوْدِس، وراح يبذل قصار جهده لتحقيق مرماه.

ونجد لدى بُوشِه ملاحظة عابرة جديدة بشرح الظاهرة، حيث يقول: «وبالنظر لقوتهم، استنجد بهم السكان الذين وجدوا أنهم مقهورين في بلادهم، كما استنجد بهم أولئك الذين توخّوا الانتقام من أعدائهم، لأهانات ألحقوها بهم». (انظر المصور رقم (١)).

الجنود المرتزقة:

نكتشف هنا احدى ثوابت هذه التفاسير، التي كثيراً ماتتناقض: كان عرب المغرب اجمالاً الجنود المرتزقة لذلك العصر، كحال السويسريين فيما بعد، ولاسيّما سكان الفاليه، المثابرين على تجهيز الفاتيكان بالجنود الحرس.

كانوا يجدون بسهولةٍ من يجنّدهم: لزهدهم [1] وجلدهم ومهارتهم القتالية وعدم خشيتهم الموت.

والأمر شتّان بين أمرٍ كهذا وتطويع السكّان المحليين.

---

(١) أما بالنسبة لاستنكار فرودوار أو غيره - ولا أدري، أنه: «لم يكن لهؤلاء البرابرة المام حتى بشرب الخمر أو صناعة الخبز» فانه حقاً لقول أحمق، إذ أن الاسلام حرّم المسكرات، كما أن فطائر الحنطة السوداء التي يخبزها المحاربون على تروسهم في الهواء الطلق، ليست سوى الخبز، وإن لم تبدو كذلك لعيوننا.
(المؤلف)

ومن البدهي، في السياق المشوّش لذلك العصر، أن يكون السكان المبعثرين والمواصلات المضطربة والقلق ونقصان السيولة النقدية والتموين، نعم، من البدهي أن ينافي ذلك كله عمليات حشد الجنود على نطاق واسع. وكلّ من كان قادراً على تجنيد ألفي أو ثلاثة آلاف مقاتل يُفسَح له المجال واسعاً لوضع أساس مملكة. عندما توجّه شارل الأصلع[1] الى إيطالية، عام ٨٧٧، قبيل وفاته، ملبياً دعوة البابا يوحنا الثامن، بعد أن هدّده عرب المغرب، الذين يغيرون على مقاطعة رُومانية(*) بمعيّة حشدٍ من المسيحيين المتمردين، وجّه الى كل أنحاء امبراطوريته، بالمعروف حالياً، أمر التعبئة العامة، فلم تكن النتيجة ذات أهميةٍ، إذا لم يلبِّ الدعوة أي إنسان. لذلك، تبدو المجزرة بحق العرب، المنسوبة لشارل مارتلِ، مستبعدة التحقيق تماماً، مما يستحثّنا على التساؤل: كيف كان لكتّاب رصينين أن يصدقوا اعتباطاً خرافة كتلك وإن ينزلوها منزلة يقينٍ انجيلي.

وهكذا، تهافت أسلافنا من كلٍ حدبٍ وصوبٍ على عرب المغرب، طالبين ودّهم، عسى أن يحاربوا في صفوفهم.

وكما يستخدمون الجزْار لذبح خنزيرٍ، جنّدهم بالتناوب أولئك النبلاء الذين لم يكفّوا عن العراك. ولكن ماهي الوسيلة لقضاء جُعْلَ هؤلاء الرجال المحاربين مع افتقار اسلافنا النبلاء الى المال (الذهب)؟.

---

(١) هو حفيد شارلمان، ملك فرنسة (٨٤٠-٨٧٧) وعاهل الامبراطورية الجرمانية المقدّسة، إذ رسمه البابا يوحنا الثامن امبراطوراً عام ٨٧٥. توطّد خلال عهده النظام الاقطاعي (م.م.)

(*) مقاطعة إيطالية تطلّ على بحر الادرياتيك، ظلت من القرن الثامن وحتى منتصف القرن التاسع عشر ملكاً للبابوية، حيث ألحِقَت عام ١٨٦٠ بمملكة سردينية. (م.م.)

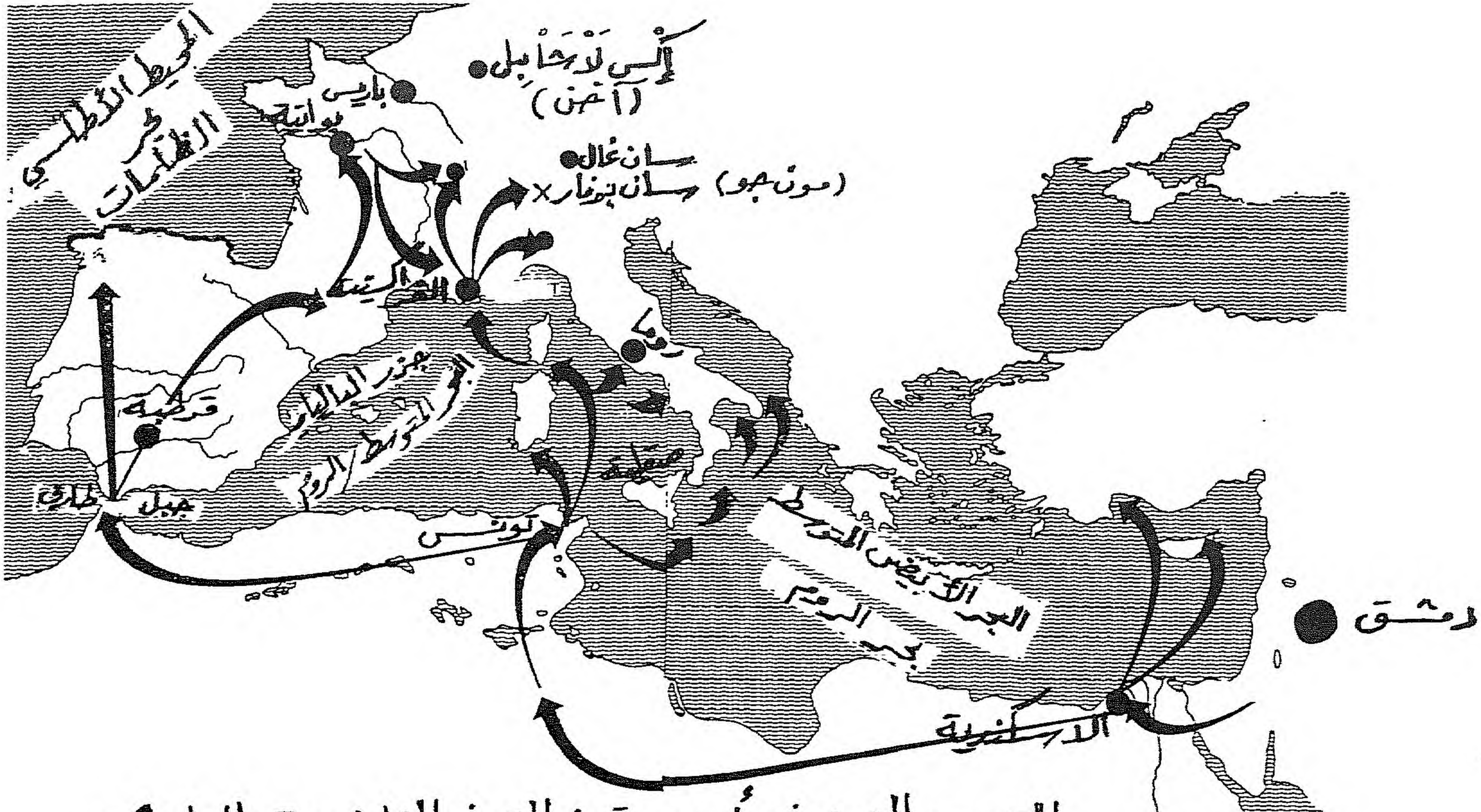

التوسع العربي في أوروبة من القرن الثامن حتى العاشر

الصورة رقم 1

إذ لن يسلّم هؤلاء المقاتلون لابالسفتجة (الكمبيالية) ولا بالألقاب الرنّانة، كما أنهم يرفضون الإقطاعيات وليسوا بحاجة لمناصب اعتبارية: انهم يرفضون كل ذلك كبديل عن أجرهم. فلم يبق أمام نبلائنا سوى تشجيع المحاربين على أعمال السلب والنهب ثم يتقاسمون الغنيمة. وهل بامكاننا أن نحدّد المسؤول عما جرى: هذا أو ذاك، هؤلاء الأشاوس أم أولئك الذين جندّوهم؟ وقد يكون الطرف الآخر الخصم هو الفاعل، فمن هو الذي أتلف هذه الأسقفية ونهب ذاك الدير؟ كان جواب المعلّقين المسيحيين (الغربيين) جاهزاً: المسؤولية تقع بأجمعها على عاتق الساراكنس وحسب[1].

---

(١) قضى أحد الأساليب الشائعة في ذلك العصر بطرد رجال الاكليروس من قبل الجنود المرتزقة، من الاديرة والاسقفيات، ثم يقومون بحرق كل شيء، بما في ذلك الوثائق التي تثبت حقوق الكنيسة على الأراضي تلك، التي يغتصبها النبيل بدعوى «الاخلاء والفرار»، ثم يلجأ الى تزوير وثائق ملكية جديدة. وأمام هذا المأزق، فوّض الاكليروس المحروم من أملاكه امره لأهواء الملك. فيما بعد، وفي عام ٩٧٠، فرَضَ البابا يوحنا الثالث عشر سلطة الحرم الديني بحق المغتصبين. (المؤلف)

منعطف التاريخ :

يمكننا أن نستنتج ودون حاجة لخوض نقاشٍ عقيمٍ(*) بأن أُودِس نفسه قد استدعاهم لنجدته . أما تتمة الرواية ، فتجعلنا أكثر حيرةً ، لاسيما بعد خضوع الدوق أودس ، ذي الأطوار الغريبة ، لحاجب القصر (شارل مارتل ، م . م .) . «ولكن مهما كان الدافع الذي حثّهم على العودة الى فرنسة» كما يلاحظ بُوشِّه مشيراً لأولئك النازحين في عام ٧٢٥ «فمن المؤكد أنهم طافوا في بلاد أكتيانية والبواتو(**) والتورْن(***) ، عاملين على تدمير المقدسات وانتهاك الحرمات ، اشباعاً لغيظهم» .

وبعد مصالحة شارل وأودِس الفجائية وقد ضمهما المجد العظيم (بعد أن تناسى التاريخ ماضي أُوْدِينِس[1] لعدم انسجامه مع السيناريو) «هاجما في سهل تور الجيش البربري (العربي م . م .) فحالفهما الحظ وأظهرا بسالةً

(*) أو كما نقول : «نقاش بيزنطي لاطائل تحته» (م . م .)

(**) مقاطعة فرنسية في وسط فرنسة جنوب غربي باريس . حاضرتها مدينة بواتية ، حيث جرت بالقرب منها عام ٧٣٢ معركة (بلاط الشهداء) . (م . م .)

(***) مقاطعة فرنسية في وسط فرنسة ، في حوض نهر اللوار ، حاضرتها مدينة تور .

(١) كما رأينا أعلاه لأودوس عدة اسماء منها أوديُنس ، والمقصود هنا «عندما كان يتعاون مع عرب الاندلس» . (م . م .)

وبراعة نادرتين، فكانت النتيجة أن قُتل عبد الرحمن[1] في غضون المعركة مع ثلاثمئة وخمسين ألف من رجاله، طبقاً لرواية مؤرخينا الشائعة. أما انستاسيوس، أمين مكتبة حاضرة الفاتيكان في أيام البابا غريغوريُوس الثاني، فيستدرك قائلاً ـ استناداً الى الرسالة التي بعث بها أودس نفسه الى ذات البابا غريغوريُوس ـ أنه بقي من الأعداء على قيد الحياة ثلاثمئة وخمسة وسبعون نسمة، وهذه الواقعة هي الأشد هولاً والأكثر هلعاً من مختلف المعارك التي شهدتها فرنسة من قبل».

وهكذا، يتلخّص كل الأمر حالياً برسالةٍ منسيّة، من المفيد أن يجري البحث عنها ثانيةً، إن وُجِدَت حقاً فيما مضى وقُدِّر لها أن تُدْرَج في وثائق الفاتيكان.

وتأهبت السماء لتحول دون الاساءة الى ذكر نصيرها، حتى في حالة إفشاء سرّ هذا المغزى الاسطوري الخارق، حيث لايمكن عزو الأمر إلاّ لشخصية ثانوية.

---

(١) هو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، كان والياً لمرتين على الأندلس، والمرة الأولى هي في عام(١٠٣هـ/ ٧٢١م) في عهد يزيد الثاني ابن عبد الملك، والمرة الثانية كانت من (١١٢هـ/ ٧٣٠م) الى (١١٤هـ/ ٧٣٢م) في عهد هشام بن عبد الملك.
والجدير بالذكر، ان المؤرخين المسلمين لم يعطوا لهذا المعركة أهمية كبيرة كما فعل المؤرخون الغربيون، كما اختلف مؤرخونا في سنة حدوثها. ونجد كاتبنا يحذو حذو مؤرخينا العرب إن كان بالنسبة لأهميتها أو لتاريخها. (م.م.)

أما عبد الرحمن الوارد ذكره أعلاه، فقد التبس أمره على عدة مفسرين، فكان أن ظنّوه أمير قرطبة العظيم[1].

والمزعج في الأمر، ان تلك الوقائع لم تحدث، في رأي بُوشه وبارونيوس إضافةً الى عدّة كتاب آخرين، في عام ٧٣٢. بل في عام ٧٢٥، ولم يكن مسرح العمليات في بواتية بل في تور (انظر اعلاه م. م.). أما بالنسبة لبابون «ورد ذكره سابقاً م. م.)، فيستهلّ ملاحظاً باحتراس فيقول: «ان الموريين اكتسحوا مقاطعة لانغْدُق «انظر اعلاه م. م.) وانتشروا

---

(١) لسوء الحظ، التبس اسم عبد الرحمن، والي الأندلس على اخباريينا القدماء. إذ ان آخر سليلٍ أموي لم يكن حينئذٍ سوى طفل رضيع ولم يؤسس سلالته الحاكمة في قرطبة إلا في عام ٧٥٦، ولاعلم لأحدٍ انه حارب بنفسه في بلاد الغال. وعندما تقدّم شارلمان حتى سرقطة (وهي Zaragosa الاسبانية، شمال شرقي اسبانية م. م.) في عام ٧٧٨، لم يقلق أمير قرطبة لذلك الأمر. جاء في مسرحية جان آنوي الرائعة (انظر المدخل م. م.) ان الامبراطور (شارلمان م. م.) أوفد اليه رسولاً، لم يكن سوى جانِلُون المخادع. ولكن موت رولان (دوق اكيتانية بعد أودُس م. م.) في ممرات رُونسفُو (في جبال البرنس م. م.) في أثناء انسحاب الحملة، حادث واقعي على الأرجح. والجدير بالذكر، انه في عام ٩٢٩ فقط، أصبحت قرطبة، وهي في أوج عظمتها، مركز الخلافة، التي أعلنها عبد الرحمن الثالث. (المؤلف)

كما نلاحظ، لدينا ثلاثة رجال يحملون نفس الاسم:

١) عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، الوالي الأندلسي لمرتين، كما ذكرنا أعلاه.

٢) عبد الرحمن الداخل (صقر قريش)، حفيد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك. وُلد (عام١١٣ هـ/ ٧٣١م) ونجا باعجوبة من سيوف جلاّدي بني العبّاسي، ثم هرب الى المغرب فالأندلس، حيث اسّس لاسرته إمارة مستقلة عن الخلافة العباسية، أي كان رضيعاً عندما حدثت معركة (بواتية=بلاط الشهداء)، عام ٧٣٢. ودام حكمه من عام (١٣٨ هـ/ ٧٥٥م). وحتى عام (١٧٢ هـ/ ٧٨٨م).

٣) عبد الرحمن الثالث الناصر (٨٩١-٩٦١)، ثامن أمراء بني أمية في قرطبة. لقّب نفسه بالخليفة الناصر ودام حكمه خمسين سنة، بين حكمه كأمير فخليفة. من هنا جاء نقد الكاتب لأولئك الذين لايفرقون الواحد عن الآخر. (م. م.)

عدة مرّات في بلاد الغال، تارةً منتصرين وطوراً مهزومين، دون أن يُقْهَروا ولو لمرةٍ واحدة». حقاً، انها لملاحظة إنسان حصيف. وبمقتضى روايته، لم يظهر شارل مارتل على المسرح إلا في عام ٧٣٣ وليقمع عصيان البروفنسيين (*) وحسب، كما أنه لم يهاجم الساراكنس إلا اعتباراً من عام ٧٣٦، وفقط في سياق تكوين عصبةٍ تهدف الى استقلال المقاطعات الجنوبية لبلاد الغال، بتحريضٍ من الزعيم المحلّي مَوْرَنْت. وإن خرجت هذه الرواية عن المألوف، علينا أن ندقّق النظر فيها.)

كيف كانت استجابة السلطات الكنسية في روما البابوية؟

إن لم تكن القنبلة الذرية مخترعة حينئذٍ لتعليل أسباب النصر المؤزر، اكتفوا بنفوذ النار السماوية، تصديقاً لكتابات العهد القديم (التوراة)(**). ودقّت النواقيس أنغام تسبيحية الشكر للسماء. وفيما بعد، عندما نسخ الرهبان ثانية المخطوطات القديمة، زادوا في عدد القتلى، فأصبحوا أربعمئة ألف نسمة، بحيث لم يتركوا أحداً على قيد الحياة، ولا حتى النساء.

(*) نسبة الى مقاطعة بروفانسة في جنوب غربي فرنسة (م.م.)

(**) جاء في (**سفر التكوين**، الاصحاح ١٩، ٢٤-٢٥): «وامطر الربّ على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من السماء. وقلَبَ تلك المدن وكل البقعة وجميع سكان المدن ونبت الأرض».

وسدوم وعمورة من المدن الفلسطينية، بالقرب من البحر الميت، وبعد أن فسق أهلها، كما جاء في الرواية التوراتية، أمطرتها السماء ناراً خارقة.

يتهكم كاتبنا بروايات الإخباريين الفرنجة القدماء، الذين شنّعوا عرب المغرب وزوّروا سيرتهم، فجعلوهم يستحقّون غضب السماء اسوةً بجميع الفاسقين. (م.م.)

الاجتياح: كرةً أخرى:

بعد مضي خمس سنوات، في عام ٧٣٠، وبقيادة أحدهم المدعو آثيم[١]، لاح في الأفق الجيش البربري (الأندلسي) الهائل، وقد أبادته رواياتهم، وذلك تلبيةً إما لدعوة أبناء أُودِس، «لعدم رضاهم على شارل مارتل بعد وفاة والدهم» أو بتحريض مَوْرَانت، خائن الموقف[*]، على ذلك، الذي كفر بنعمة شارل مارتل النبيل، الذي أغدق عليه النعم، ومنحه لقب كونت أو دوق وعهد اليه في منصب حاكم مرسيلية وآفينيون[٢]، ومع ذلك، فلم يتورع في هذه الأثناء عن تشجيع العدو على العودة ثانيةً. (وقد لايكون مورانت هذا سوى استقلالي مقدام، سعى، مستعيناً بعرب المغرب، الى تحرير مسقط رأسه من وصاية حُجَّاب القصر! ومن الممكن أن تكون سيرته كبطلٍ قد علقت في ذاكرة أهالي بروفنسة...).

وتمّ احتلال ناربون ونيم وأجد وبِزِية ومَجلُون[**] بدون قتال. ومقاومة آفينيون تكاد لاتُذكر، ولن نجازف في قولنا أن مرسيلية أظهرت فرحاً كبيراً، وقد وصلت الى مسامعها أخبار النتائج الخيِّرة لسيطرة العرب

(١) هو الوالي على الأندلس «الهيثم بن عبيد الكلابي (١١٠-١١١ هجري/ ٧٢٩-٧٣٠ ميلادي)، ونطلق اسم الولاة على أولئك القواد الذين حكموا الأندلس بعد موسى بن نصير، وقد بلغ عددهم ١٩ والياً، حكموا من عام (٩٧هـ/ ٧١٦م) وحتى عام (١٣٨هـ/ ٧٥٥م) وتنتهي بدخول عبد الرحمن الداخل (صقر قريش)، الاندلس. (م.م.)

(*) كما نقول «شيطان اللعبة». (م.م.)

(٢) مدينة في فرنسة الجنوبية، على نهر الرون. من آثارها قصر البابوات، حيث أقاموا في آفينيون من عام ١٣٠٩ وحتى ١٣٧٧. (م.م.)

(**) مدن في جنوب شرقي فرنسة (م.م.)

على اسبانية. وتظاهرت آرل وإكس بالمقاومة. «وعلى الأرجح»، نُهِبَت من جديد مدينة آرل، الشهيدة(*)... وتجدّدت مشاهد العويل والنواح.

وعندما راحت آلات غُوتْنْبِر(١) البدائية، تطبع كيفما كان مؤلفات كتّابنا السذّج، لم يتردد هؤلاء، حيال ندرة الوثائق، فشرعوا يخمنّون، خالطين الحابل بالنابل. أي مارسوا صنع التاريخ، بعد أن جعلوا من أنفسهم مصادر لتلك المهمّة. فها هو بُوشِه مثلاً، وقد خاب أمله لانعدام قائمة مفصّلة بأعمال العنف المنسوبة الى الساراكنس (عرب المغرب م. م.)، في غضون ذلك الإجتياح، لم يتردد في ادراج مايلي في النص الأصلي القديم: «ومع أن اخباريي ذلك العصر لم يشيروا، بخاصة، الى مختلف الأضرار التي ألحقوها بسائر أنحاء بروفنسه، فيبدو على الأرجح، بعد أن هاجموها بحراً وبراً، وبعد استولوا على مدنها الرئيسية: آفينيُون، آرل وإكس، حولّوا بقية ربوع بروفنسة ومن جانب نهر الدورانس(**) هذا وذاك الى مسرح لأعمالٍ السلب والنهب، التي أصبحت تحت رحمة أولئك البرابرة، الذين راحوا يحرقون الهياكل والوثائق الكنسية القديمة ويهدمون المذابح المقدسّة ويضربون الرهبان ويغتصبون الراهبات ويطردون الأساقفة من كراسيهم (مراكزهم م. م.) ويهدمون المدن ويخربون القرى ويقتلون الرجال ويسبون النساء ويسرقون الأثاث، أي أنهم اقترفوا في كل مكانٍ أعمالاً في غاية الوحشية». حقاً، لايمكن للمرء أن يكون أكثر شمولية في تخمين كهذا.

(*) يتهكّم كاتبنا بتعبير «على الأرجح»... ونُهِبَت... والشهيدة... (م.م.)

(١) عامل مطبعة ألماني (١٣٩٦-١٤٦٨)، ضبط اعتباراً من عام ١٤٤٠، في مدينة سترا سبورغ، طريقة لطباعة الكتب بحروف متحركة، منفصلة عن بعضها، وقد سبقه الى ذلك الصينيون منذ القرن الحادي عشر (م.م.)

(**) نهر ينبع في جبال الألب الفرنسية وهو من روافد نهر الرون (م.م.)

وزعموا أن هذه المصائب الكبرى قد أنذرتهم بوقوعها ـ في رأي الجليل بِد[1]، الكاهن الأنغلوساكسوني والعلاّمة النابغة ـ مذنّبان سبحا، في عام ٧٢٩، حول الشمس.

ويُسلم بُوْشِه بنكير هذه النبوءة، ولكنه يضيف قائلاً: «ولكن السبب الحقيقي لهذا الغضب الإلهي ينجم عن كافة آثام ذلك العصر: من سيمونية(*) وفسق القساوسة وطماعة الناس بأملاك الكنيسة»

وبلهجة ندم جديرة بالثناء، يسترسل بُوشِه في عرض النقائص المتفشّية. بمختلف فئات المجتمع، ويصف قائلاً: «استولى الناس العاديون على الاسقفيّات وراح اشخاص غارقين في الموبقات يضعون أيديهم على أملاك الكنيسة». تُرى! في كل مرةٍ يجري سلب أسقفية ويُرهق القائم عليها، فمن هو الأسقف المقصود، وهل وُجِدَ حقاً أم لا، وهل تحوّلت الأديرة الى مغاور لصوص... حقاً! أي ميدان للسرقات صار مجتمعنا المسكين، في ذلك العصر الموري، وأي قلبٍ معيب للحقائق، بالقائنا التَبعيةِ عليهم!

وكان شارل يقظاً.

أرسل شقيقه شيلدبرَنْد على رأس كوكبةٍ لملاقاة العدو، بينما كان يلمّ شعث أنصاره المؤمنين. وأمام جمهور البرابرة الغفير، أصابه القنوط وأدرك

(١) راهب واخباري انكليزي (٦٧٢؟-٧٣٥). له كتاب **«التاريخ الكنسي للأمة الانكليزية»**.

(*) نسبةً الى «سيمون الساحر»، هو شخص ذكره كتاب **(أعمال الرسل)**، الملحق بالأناجيل كان سامري الأصل، ماهراً في السحر. تنصّر مع لفيف من مواطنيه وأراد أن يشتري من بطرس الرسول بثمن المال سلطان وضع الأيدي وصنع المعجزات فخذل. منه السيمونية أي المتاجرة بالقدسيات. (م.م.)

أنه لن يتغلّب على عدوه دون مساعدة صهره لِوِيتبَرند، ملك اللومبارديين(*)، الذي هرع لمساعدته على رأس أتباعه . . .

وبعد التحام الجيشين، أُلقي الحصار على مدينتي آفينيون وآرل، اللتين اصبحتا طعمة للنيران (عجباً! مازالت بقايا في آرل قابلة للاشتعال!)(**) ونكلّوا بالناجين من الساراكنس ثم أجهزوا عليهم دون العفو عن أيٍّ منهم . . وكل ذلك بنعمة الله وفضله .

وانقضّ شارل مارتل على مرسيلية، وقد عيل صبره، ليقتصّ من مورانت، ولكنه لم يلقاه فيها، إذ التجأ هذا السافل وطغمته الى المرتفعات الشجراء، التي مازالت تحتفظ، حتى يومنا هذا، باسم الموريين. وحيث استطاع العلماء، بعد لأيٍ، تحديد موقع جبل كلال المذكور في مؤلفات الجغرافيين العرب .

وبعد أن نهب شارل مدينة مرسيلية ليعاقبها على ذنبها(***)، بادر الى محاصرة مدينة ناربون، ولكن آثيم[1] صمد بصلابة، فراح شارل يراوغ .

(*) من الأقوام الجرمانية، اجتاحوا إيطالية الشمالية في القرن السادس م. واسسوا عدّة دوقيات. قهرهم شارلمان فيما بعد وأخضعهم (م.م.)

(**) يسخر كاتبنا من الإخباريين والمؤرخين الغربيين ويهزأ بمزاعمهم التي جعلت ـ كما رأينا أعلاه ـ مدينة آرال أرض دمار وخراب على يد عرب المغرب (م.م.)

(***) لأنها لم تقاوم عرب المغرب (م.م.)

(١) آثيم هذا، هو: الهيثم بن عبيد الكلابي، الوالي على الأندلس، قبل عام ٧٣٢ بسنتين، كما ذكرناه أعلاه، إذ ان (عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي) قد تولّى أمور الأندلس، للمرة الثانية، من عام ٧٣٠ وحتى عام ٧٣٢. ولاندري إن كان الغافقي قد احتفظ بالوالي السابق الهيثم، في قيادة قواته (م.م.)

ويجب أن لايغيب عن بالنا أننا في عام ٧٣٢ بالذات(*).

وطال أمر الحصار، فانقضى الشتاء وجاء الربيع. وإذ بجيشٍ جديدٍ للعدو ينفذ من جبال البرنس، ليقدّم المعونة للمحاصَرين. فهرع شارل دون ترددٍ لملاقاته وأباد جيش العدو مع قائده آمور(١)، ثم استولى ثانيةً على مدينة ناربون بعد أن تخلّت عنها حاميتها، كما أنه دكّ أسوار كل من نيمْ وبِزِية وآجْد ومَجِلون قبل أن يحرقها، موقعاً بها القصاص لترحيبها بالساراكنس. وبعد ذلك، عاد اللومباريون الى بلادهم مغمورين بالأمجاد والهدايا. وأخيراً انقشعت الغمّة ولم يبقَ أي أثرٍ للبرابرة في طول العالم المسيحي (الغربي م.م.) وعرضه، وجرى كل ذلك في العام المشهود: ٧٣٣(٢).

(*) أي نحن في عام معركة بواتية (بلاط الشهداء)، بينما لانجد ذكراً لذلك في كتابات الاخباريين الفرنجة. وفي الحقيقة، لم يعط المؤرخون العرب القدماء هذه الأهمية العظمى لمعركة بواتية والأمر نفسه نجده لدى المؤرخين الفرنجة. والذين أعطوا تلك الأهمية فيما بعد هم المؤرخون الغربيون الحديثون فالمعاصرون (م.م.).

(١) لانجد لهذا الأسم أي أثر في لوائح الولاة والقواد العرب لذلك الزمان. ويتكرر الخطأ مراراً لدى الاخباريين الفرنجة فيما يخصّ ذلك(م.م.).

(٢) يفصّل بابون (كاتب ورد ذكره في المدخل م.م.) هذه الحقبة من الصراع لتشمل فترة أربع سنوات: ففي الفصل الأول، عام ٧٣٦، نجد شارل محارباً في بلاد الساكسون (الألمانية م.م.)، فينتهز مورانت هذه الفرصة ليسلّم إلساراكنس، وقد تسرّبوا الى سبتيمانية، مدن إكسْ وآرلْ وآفينيون مع البقية الباقية من بلاد بروفنسة. أما أعمال شارل مارتل فتشابه تقريباً حوادث السيناريو المذكور آنفاً، باستثناء غياب اللومبارديين، وفي النتيجة، نجد المنتصر بعد أن يعاقب وينهب المدن التي استردّها من الساراكنس، يعود، عام ٧٣٥، مثقلاً بالغنائم الى باريس «التي غادرها بعد فترةٍ وجيزة ليعبر نهر الراين، حيث الساكسون الذين تمرّدوا ثانيةً. والفصل الثاني: يظهر مورانت من جديد، مع حلفائه المسلمين وأخذ ينهب البلاد. وكرّر شارل العملية السابقة، فأرسل شيلدبرند في الطليعة، مع نخبة جيشه، وحينذاك يستغيث بلويتبرند. والنتيجة هي واحدة. والحسن ماحسنت عاقبته. (ويقول مثلنا الشعبي: بالآخرة يافاخرة م.م.)

المؤلف

الخرافة والرمز:

واحسرتاه! إذ كان هؤلاء الرعاع الملعونون يفرّخون بسرعةٍ مذهلة، فما برح الاخباريون، حتى نهاية الألف الأول يحكون شرورهم في وقائعهم: من أعمال اغتصابٍ ونهبٍ وابتزاز أموال المسافرين وسلب الأديرة[1]، نعم لااستحالة لصروف الدهر، سوى أن الاسفين راخ يغور أكثر فأكثر في قلب أوروبة.

وخلف هؤلاء بصمات جلّية وحيّة على مرّ العصور، وسنوضح هذا الأمر حينما نتطرّق الى الفَراكْسينية.

واليكم ماذكره بابون في هذا الشأن:

«مازال الساراكنس يعيثون فساداً في بروفنسة، ليصبحوا، عما قريب، أقوياء الى درجةٍ، أن نبلاء بروفنسة الذين كانوا يتقاتلون بضراوة، سارع كل واحدٍ منهم يجتذبهم الى صفّه، فشرع هؤلاء بتقديم خدماتهم. متنقلين بالتعاقب من طرفٍ الى آخر بهدف اضعاف الجميع، وحالفهم النجاح، إن كان بالنسبة لعدد الأشخاص الذين أبادوهم في أثناء الحروب الأهلية أو لحجم المساعدات التي تلقوّها من اسبانية بحيث انهم، بعد فترةٍ

---

(١) في عدادها دير سان موريس (كلمة سان في النص تعني القديس م.م.)، الذي تعرّض لذلك في عام ٩٣٩، وكذلك على طريق سان برناردينو الكبير ـ من أكبر الممرات الجبلية لسلسلة جبال الألب في شتى العصور، حيث عبره، على الأرجح، الموريون للمجيء الى ربوعنا ـ ونعني بذلك الدير المأوى باسم سان بيير (القديس بطرس) الذي تجمّعت حوله بلدة تحمل نفس الأسم (أما مأوى الممر الجبلي فقد شيّد فيما بعد.) (المؤلف).

وقد اشتهر هذا الدير المأوى بكلابه الضخمة المدرّبة على إنقاذ التائهين في الممرات الجبلية الثلجية (م.م.)

وجيزة، سيطروا عل بروفنسة. وراحوا حينئذٍ ينتهكون كل الحرمات، وبعد أن أخضعوا قسماً كبيراً من المناطق الساحلية إضافةً لبعض القرى الواقعة في جبال الألب وغيرها من البقاع، تدفقّوا الى الأقاليم الداخلية، زارعين في كل مكان الخراب والذعر».

أما بالنسبة لهذا الموضوع الجوهري، فمختلف الحوليات الكنسية منها والدنيوية، تبرز نفس التناقض حول ضربات «المطرقة» المجلجلة كالرعد ولكن بدون جدوى(*): ووضع الجبل فأراً. ويبدو أن شارل مارتل لم يضبط شيئاً البتّة، إذ مازال الموريون يفتكون فتكاً ذريعاً. فبعد أن وطدّوا وجودهم في الفراكسينية، تابعوا تقدمهم باتجاه وسط أوروبة...

فأي لغزٍ هذا؟!

لم تفضِ ابحاث النقّابين المعاصرين الى أيّة نتيجة مرضية. تُرى هل سيُحَلُّ اللغز يوماً؟!

لابدّ أولاً من إيضاح مايلي: لم تكن معركة بواتية، التي خلّدت اسم شارل مارتل، سوى واقعة ثانوية، لاأهمية لها لذاتها، بل انها حلقة في سلسلةٍ لايمكن إدراك مغزاها الحقيقي، إلا إذا أدرجناها في سياقها التاريخي الشامل.

من المؤكد فعلاً، انه في خريف عام ٧٣٢، اصطدمت فجأةً مجموعة من الموريين والويزيقوط، في اثناء الانسحاب، مع الفرنجة، بعد غارتها على ضواحي مدينة بواتية، وكان الغزاة، وقد شفوا غليلهم، يزحفون تحت وطأة

(*) وقالوا: «أسمع جعجعة ولاأري طحناً» (م.م.)

الغنائم، فتعرضوا لمعاملةٍ سيئة، وكانت النتيجة ألف وخمسمئة قتيل، أغلبهم من الساراكنس مع بعض المسيحيين[1].

ولابدّ من أن نخفض الى ذات الأبعاد أُغلب المصادمات، التي جرت ملياً، في السراء والضراء، بين الطرفين: العربي والفرنجي.

والخلاصة المنطقية الوحيدة، هي أن التاريخ، قد احتفظ من اشتباك بواتية، بمشهدٍ وتوقيتٍ متوسطين، ليشهر حملةً خلفت أثراً نفسياً لدى الموريين، تثنيهم عن مواصلة فتوحاتهم بكثافة. وأولى بالمرء أن يقنص الفيل من أن يضع يده في عشّ الزنابير(*). وانها لخيلاء محدودة أن يظن المرء انه لم يكن باستطاعة العرب، وهم الذين أخضعوا آنذاك، وبتلك السرعة المذهلة، هذا القسم الأكبر من المعمورة، أن يوسعوا سلطانهم في أوروبة، وذلك بتأمينهم الوسائل الكفيلة بذلك. وقد لعبت قضيّة الحدود الآمنة ومشاعر السكان المحليين دوراً في احجامهم عن ذلك. وبعد التفكير، أدركوا أن النفقة تفوق الثمن.

وفضّل هؤلاء سياسة شؤون اسبانية من خلف جبال البرنس، التي كانت بالنسبة اليهم غاية العالم المتحضّر، حيث نظّموا مجتمعاً نموذجياً. (أما الفريق المعتصم بالفراكسينة، فلم يكن سوى فصيلٍ احتياطي، يحتفظون به للضرورة القصوى). أصبح الأمراء بحاجةٍ للسلم ليوطدوا أحوال مجتمعهم، لقد توخّوا السلم، بل انصرفوا عن بذلٍ أيّ جهدٍ آخر لإتمام فتح القارة الأوروبية. في الواقع، انقلب الموقف رأساً على عقب، بمجرد تأسيس ثغور كونبرة وطليطلة وسرقسطة(**)، تلك التي يدير أحوالها

---

(١) ج. ب. رو، **الاسلام في الغرب**، دار بايو، باريس ١٩٥٨. (المؤلف)

(*) وكما يقول مثلنا الشعبي: «أتريد الكرم أم الناطور». (م.م.)

(**) من المدن الثغور في الأندلس: تقع كونبرة حالياً في البرتغال، على نهر مُونْدغو، أما طليطلة، ففي جنوب مدريد، على نهر التاج، أما سرقسطة فتقع الى الشمال الغربي من طليطلة، على نهر الإبرو. (م.م.)

جنود ـ فلاحون، على غرار مانعرفه عن الثغور البيزنطية: وبتعبير آخر، جاء دورهم للذود عن كيانهم في وجه غارات البربر (الفرنجة م. م.). . ..

إنها لبينّة شاذة ولكنها موضوعية. فمقابل أوروبة الخَرِبَة، حيث تقتصر الانتلجنتسية (أهل الفكر م. م.) على بعض الأفراد الكنسيين، اضافةً لعدد ضئيل من الملوك والأمراء، تلك الفئة المصابة بداء الشيخوخة والأوهام، تزهو قرطبة بحضورها الفكري وسلطانها المشرق كالشمس. ثم آل أمر الخلافة تدريجياً الى بحران العطالة وشطط الكسالة، مما يوافق مزاج الشرقيين اكثر من رغبتهم الملحّة في الفتوحات. وعلى كلٍ، فكما يقول المثل البشري الحكيم: ملك كسول أفضل من ملكٍ لمّاس (أي يتدخّل في كلّ شيءٍ)(*)

وتظل معركة بواتية، بالنسبة لربعنا، (أي الغرب الأوروبي م. م.) • حارس المرمى، الذي يصون شرفنا، ولن يشطبوها أبداً من لائحة الشرف.

ولنفترض أن انساناً ما عفى عن حذلقات أُودِس(1)، أو أن الوثائق المنبوشة والعلوم المساعدة الحالية أتاحت لنا فرصة تصحيح هذه الحقبة من تاريخنا، (وهذا ليس كل شيء، فما زالت أمامنا مرحلة حاسمة، ألا وهي

(*) أو كما نقول (حشرّي) (م. م.).

(1) أُودِس هو (دوق اكيتانية)، عاصر شارل مارتل، وتارة نراه في صفوف شارل مارتل ثم ينحاز الى العرب. وكما رأينا أعلاه، ورد اسمه في الوثائق بعدة أشكال: أودو، أوتو، أوديتُس، أودتم أودس (م. م.)

تدمير الفراكسينة)، فلا أظن ان شعور الغرب أو بالأحرى ماتحت شعوره (الشعور الباطن)، يوافق مطلقاً على ذلك[1].

ولنلاحظ الجهود المبذولة لإزالة الأوهام حول غليوم تل[2]، انها ممتعة ومن الممكن أن تقنعنا، ولكنها بدون جدوى، ومن المستحيل على أيٍّ كان أن ينتزع قذّافنا. . ويظلّ الرمز أقوى من الواقع. . .

عجباً! إن كان مثواه جهنم؟:

تُرى، ماهي السيرة الحقّة لشارل مارتل؟ بالتأكيد، كان قائداً عظيماً ورجل سياسة محنّك، وعلى ذلك يشهد دربه. ويمكننا أن نكرّر قول رونسار(*):

مارتل هذا هو أمير الفرنسيين

وإن لم يكن ملكاً اسماً فهو سيد الملوك

وبالمقابل، فمن السخف أن نجعله الملاك المهلك، صليبياً قبل الأوان، ومنقذ البشرية المسيحية. . .

---

(١) من الأمثلة الأكثر حداثة لدوام الخرافة، حتى في الأوساط العلمية مايلي: «لو أن ملتيادس انهزم في ماراثون وشارل مارتل في بواتية، لكان مصير الحضارة الغربية مغايراً لما هو عليه الآن». هذا المقطع منقول عن فرويد في التمهيد لكتاب «**اولئك المرضى الذين يحكموننا**» لمؤلفيه: ب. أكوسة والدكتور ب. نتشنيك، مطبوعات ستوك، باريس ١٩٧٦. (المؤلف)

ملتيادس هو القائد الآثيني الذي قاد القوات اليونانية في سهل ماراثون، عام ٤٩٠ق.م. لصد الهجوم الفارسي، وكان النصر حليفه. والمقصود هنا انه لو انتصر الفرس في ماراثون والعرب في بواتية، لتغيّر مصير أوروبة (م.م.)

(٢) بطل اسطوري سويسري، من القرن الرابع عشر. تقول الرواية ان غليوم تل رفض تحية قبعة جِسْلِر، المشرف الملكي لآل هبسبورغ، فأمر باعتقاله وألزمه أن يخترق بسهم تفاحة موضوعة على رأس ابنه، فخرج من محنته منتصراً، وتضيف الرواية انه قتل، فيما بعد جِسْلِر، جلاّد الشعب السويسري. (م.م.)

(*) بيير رونسار (١٥٢٤-١٥٨٥) شاعر فرنسي في طليعة الحركة الأدبية في عصره. ارتقى باللغة الفرنسية من لهجة العصر الوسيط الى مرحلة جديدة (م.م.)

نسبه: والده بِبَن هرستال، حاجب القصر ووالدته ألْبايْد (أقرّوا شرعية الاقتران بالزّواج بعد تطليق الزوجة الأولى بلِكْتْرود، أي أن شارل وشيِلْدبِرَنْد ليسا أولاد سفاح، كما زعمت هذه الأخيرة، في دسيستها عليهما، بعد وفاة والدهما بِبَن).

كنيته: «أُطلق عليه لقب مارتل، لانسبةً لمارته(*)، بحيث انه محارب(*)، كما يزعم بعضهم، بل لمشابهته المطرقة(*)، التي حطمّت رأس جميع المشوشّين، الذي عاثوا آنذاك فساداً في فرنسة، ولاسيّما الساراكنس».

اعلان قداسته؟: لم تجرؤ السلطات الكنسية على إدراج اسمه في عداد القديسين. وحتى أقرب المصادر الى ذلك الحدث التاريخي، لاتصوّره على شكل قدّيس، بل بالعكس تماماً.

يتراءى لنا شارل مارْتل، في روايات الإخباريين، كامرئٍ «مغتبط بالدمار»، شغله الشاغل، الاقتلاع وليس الزرع، وكأنه «سيل هادر يقتلع كل شيءٍ يعترض سبيله» ولايتورّع هو الآخر عن نهب كل مدينةٍ يسترجعها من الساراكنس.

وكل شيءٍ يدعونا الى الاعتقاد انه، في هذا العالم القبإقطاعي (قبل عصر الاقطاع)، الخاضع للنزوات البدائية، لم يختلف عن غيره إن كان في السرّاء أو الضرّاء، ولم يفوّت الفرصة وشغل مركزه بكفاءةٍ مابين أولئك النبلاء المختلي الشعور والجشعين والجهّال بسوادهم الأعظم.

(*) الكلمات الثلاث: (مارته Marte) و (محارب Martial) و (مطرقة Marteau من اللاتينية المرطنة Martellus) مشتقة أصلاً، على مر الأيام، من كلمة Mars، اله الحرب الروماني، وتدل كلها، بشكلٍ أو بآخر، على مفهوم الحرب والقتال والضرب والطرق. ومن ألمّ باللغة اللاتينية يعرف تمام المعرفة حالات هذا الاشتقاق. (م.م.)

تُرى، لماذا تصارع أولئك السادة؟ أدفاعاً عن سرّ الثالوث المقدس او الطبيعة الإلهية للسيد المسيح، أو صوناً لعقيدة الحبل بلادنس الأخروية؟ أو مثلاً لفرض سلطة البابا؟ . . كلاّ! ثم كلاّ. . فلم يكن الدين سوى ذريعة، ولم يحارب هؤلاء وينهبوا تحت راية السيد المسيح، إلا لافتقارهم اليها. عجباً! أكانوا ملمّين بالماركسية(*)؟

في الواقع. لم يسنح ركننا التعيس هذا من المعمورة آنذاك، أية فرصة أخرى، لأولئك الطمّاعين، سوى العنف والخديعة الأكثر خسّةً، ليحتلّوا مركزهم في محيطهم، بمضرّة الغير، وكأن الخالق حينئذٍ يعجز عن اصلاح ذات البين.

وفي الواقع، لم تطرق «المطرقة» أي (شارل مارتل م. م.) الموريين والساكسون (من سكان جرمانية=ألمانية م. م.) فحسب، ولكنها كثيراً ما سحقت مسيحيين صالحين، وقد خشي سكان بلاد الغال (فرنسة م. م.) تلك المطرقة أكثر مما أرهبت الساراكنس. تلك هي الحقيقة المحض.

وهل بامكاننا أن نصدّق ملاحظاتٍ، صارخة بتنافر نغمتها أو نتأكد من صحتها، نجدها في أيّ تقريظٍ، أوحوا به لإخباريّ ما، بعد تعرّضه للضغط المنوي. . أليس من الأجدر بنا، أن نطالع كاتبنا بُوشه، الذي كررنا ذكره مراراً، والبعيد كل البعد عن أي هرطقةٍ:

«وبصدد اساءة شارل مارتل لبعض الأساقفة وبأنه تصرّف بأملاك

(*) اشارة الى الفلاسفة الماركسيين الذين درسوا مختلف الديانات، على مرّ الأيام، وأدركوها كظاهرات اجتماعية تعبر عن أحوال اقتصادية وسياسية وأخلاقية معيّنة، وانتقدوا أولئك الذين استخدموا الدين كسلاحٍ لمآرب دنيوية عابرة (م. م.)

الكنيسة خدمةً لمصالحه واكراماً للنبلاء الذين واكبوه في الحرب، فمنحهم لفترةٍ ما، عائدات العشور الكنسية (وهو منشأ العشور المقطعة في فرنسة)، فبعض الكتّاب طعنوا في موته وفي خلاصه الأبدي، وقالوا أن جسده اختفى من ضريحه وأن النار مثوى لروحه. . . ».

الفصل الثالث

الفَرَاكسينِة

الفُلْك الحائر

يغطي جرفُ، تبرز منه تلك الصواعد العملاقة الشهيرة باسم الصخور البيضاء، غابة أشجار البهش (بلوط الفلّين) والمُران والقسطل (كستنة)، الملتوية تدريجياً نحو اليّم... لتبدو أحياناً وكأنها تلامسه، والأمر ليس بذلك، إذا ان نباتات السفح، التي تتغلب على الصخر، هي ذات طبيعة مغايرة.

يبدو الشاطئ، مابين سانت مكْسِيم وكَافَالِر، كسلسلةٍ من الرؤوس والشروم البحرية، والطرافة في الأمر ليس بهذا التشكل، بل ذلك اللسان البحري العميق والمنبسط على بعد خمسة أو ستة أميال (الميل=١٦٠٨ أمتار)، خلف شبه الجزيرة الصغيرة القائمة وكأنها حاجزٌ(*): هذا هو جون سَامْبَرَاكيتَانُس(**)، حيث كانت القوادس(***) ترسو بسهولة في مرفأ هِرَقْلِيَة كَكَابارِيَّة القديمة، القرية حالياً، على الأرجح، من مدينة سان

(*) جمع: صاعدة، راسب كلسي متحجّر(م.م.)

(**) واسمه اللاتيني Sinus Sambracitanus(م.م.)

(***) مفردها قادِس، وهي السفينة الكبيرة لدى القدماء (م.م.)

تروبه(*) . . . وأشـاد الملاحـون العـرب بدورهم بذكـر هذا المرسى. حـيث انسابت مراكبهم «تقريباً بدون قيادة مدفوعةً بالتيارات البحرية».

وتزخر هذه المناطق البحرية بالوقائع التاريخية، حيث نزل في ربوعـها بالتناوب كلٌّ من اللغوريين(**) والكلتيّين(**) والرومان فـالعرب، وخلّدوا دورياً آثارهم على أرضهـا. وفي أحد أيام قرننا العشرين هذا، تحولت هذه البقعة من جديد الى مسرح عملية انزال حربية(***) . . .

ويجدر بهوميروس[1] أن يقصّ علينا خبر قـدوم السـاراكنس هؤلاء. عندما أعاقت العاصفة مسيرة عشرين قرصاناً، ليجدوا ملاذاً في هذا الخليج. وبعـد بلوغـهم الشـاطئ، حـمدوا الله الذي لم يكشف عن اقـتداره، بازالة صواري مركبهم، إلا ليوجههم نحو هذه الواحة. . .

«فمن هذا القبيل، تحميها أمواج البحر، بينما تنتصب في الجانب الآخر غـابة كثيفـة، لايمكن للمرء أن يلجها، دون أن يشعر فوراً بوخز إبر

(*) ميناء في جنوب فرنسة، على البحر الأبيض المتوسط. انظر المدخل أعلاه. (م. م.).

(**) أقام اللغوريون قديماً في الربوع الساحلية الواقعة بين مرسيلية الفرنسية وجنوى الإيطالية، قبل أن تخضعهم روما في مطلع القرن الثاني ق. م. أما الكلتيون، فعاشوا في مختلف بلدان أوروبة الغربية اعتباراً من الألف الأول ق. م. وقد ساهمت القبائل الجرمانية ثم الرومان في القضاء على ممالكهم، في القرنين الثاني والأول ق. م. (م. م.)

(***) المقصود بذلك عملية الانزال البحرية للقوات الامريكية والفرنسية في ١٥ آب ١٩٤٤، في اثناء الحرب العالمية الثانية (م. م.)

(١) هو الشاعر الملحمي اليوناني (القرن التاسع؟ ـ القرن السابع؟)، واليه تنسب الرائعتان «الالياذة» التي تروي أخبار حرب طروادة، لاسيما في مرحلتها الأخيرة، ثم «الأوديسية» التي تسرد مغامرات بطلها «أوديسيوس» في مختلف أنحاء البحر الابيض المتوسط، قبل عودته الى مملكته في جزيرة إيثاكا (م. م.)

الشوك، التي تحفّ بها من كل جهةٍ) بهذه العبارات يصف لنا لويتبْرند[1] الموقع حيث «ساقتهم ريح عاصفة، على مضضٍ منهم، وبارادة المولى، وإن كانت هي خفيّة بالنسبة الينا، فلا بدّ من أن تكون صائبة في ذاتها».

قد يبدو تدبير العناية الإلهية، على الأمد القصير، غريباً بالنسبة للبعض، إذ هاهو لويتبرندنفسه يستطرد لساعته: «بعد أن وصل هؤلاء القراصنة الى البر، في ليل مظلمٍ، أخذوا البلدة على غرّةٍ وذبحوا سكانها المسيحيين، ثم شرعوا يحصنّون جبل موروس(*) المجاور، وأصدروا أوامر صارمة، منعوا بموجبها قطع أشجار الغابة، حتى أنهم أقدموا على اعدام من سوّلت له نفسه قطع أي غصنٍ، حتي الصغير منه. وهكذا، لم يبقَ سوى معبرٍ، بالغ الضيق، مربكٍ جداً».

وليس من العسير علينا أن نخمّن الفتنة، التي أوقعتها في فؤاد هؤلاء الناجين من الغرق، تلك الغابة اللامتناهية والكثيفة، اضافة لوفرة طرائدها وغزارة مياهها الباردة، لاسيّما إذا ما قابلنا هذه الواحة بالجزر الصغيرة لأشجار الصبّار والنخيل، الشحيحة بغلتها، والتي صادفوها في مسيرتهم في افريقية... انها لحقاً الفردوس الموعود...

تسلّق هؤلاء المنحدر، ممهدّين طريقهم عبر الأدغال، وهاهم وقوفاً

---

(١) أسقف منتوفا (مدينة في ايطالية الشمالية)، سفير الامبراطور أوتو الأول (٩١٢-٩٧٣) في القسطنطينية، وهو غير ذلك ذلك السفير في بلاط عبد الرحمن الثالث الناصر، في قرطبة. شهير **بحولياته** المتعة إضافةً لكتابه (**القصاص** Antapodosis) (م.م.).

(*) مازال اسم الجبل على ماكان عليه منذ ألف سنة ويقع في الجنوب الشرقي لفرنسة باسم (جبل المورين) ويطلّ على البحر الأبيض المتوسط، حيث تقع عدة مراكز استجمام (م.م.).

على الصخور، منتصبين كأصابع الخالق نحو السماء، وراحوا يتأملون البحر، المغلوب على أمره، وقد استلفت أنظارهم من الجانب الآخر، نحو الشمال، سهل وماأعذبه للنظر، ينبسط خلف الجبال المتشابكة . . . ويقع هذا المطّل، في منتصف الطريق، مابين الخليج وفيدُوبن ومزارعها، ولايتجاوز مدى رؤيته، على خطٍ مستقيم، عشرة أميالٍ. ولايحتاج الأمر لأكثر من حارسٍ واحد، لمراقبة منطقة شاسعة. كما أن صوت المؤذن يبلغ من نفس المرصد مداه الأقصى، الى الجهات الأربع.

وفي سفح الصخور، تنحدر هضبة باتجاه البحر، شبه جرداء، باستثناء شريطٍ من أشجار القطلب والأدغال الشائكة، تعترض سبيل منفذها. وأي مكانٍ للمرء أفضل من ركنٍ كهذا، لنصب خيمته، لاسيّما انه محميّ من الرياح، على نحو رائعٍ. . . ويمكن الدفاع عنه بسهولةٍ، وحتى في حالة اجتياحه، فمن السهل جداً على المخيّمين، أن ينفرّقوا في الجوار، ومن يجسر على مطاردتهم في هذه الأغيال وفي هذه المنعرجات العويصة في قلب الغابة؟! انها لملاجئ يستحيل ولوجها، إضافةً لكونها مكامن، من الصعب على العدو أن ينجو بحياته من شباكها.

ومما يستدعي الانتباه لغرابته، ذلك الموقع الشهير حالياً باسم الرغفان الشمعية الثلاثة ومعها الجرف والصخور البيضاء، وكأنه حصن حصين، يأتي مصداقاً لمزاعم أولئك الذين قالوا أن الدم والعنف يدومان، كالسائل السحري الملتصق بالأشياء، ليقضّ مضاجع الأحياء لأمدٍ طويل. ويلتقط بعضهم من الموقع معادن ثمينة والبلور الجندلي وبعض حفنات من حجر

البجادي، بلونه الأحمر الرمّاني. ولكن، لايخطر أبداً على بال أي إنسان أن يطيل المكوث في تلك البقعة.

وعلى مايبدو، أضحت تلك الناحية طليعة عمليات استقرار الموريين. (انظر المصور رقم ٢).

قلعة الليغوريين:

بل أكثر من ذلك: ففي المستوى الأدنى والى الشمال من الصخور المدببة، أبصر القادمون الجدد تلاً خارقاً حصيناً. وتساءل هؤلاء، للوهلة الأولى، إن كان البشر بجهودهم الخاصة قد أقاموا هذا الصرح، كما هو شأن الإهرامات. تسلّقوا الدرج المدوّخ والمنحوت في الصخر الجلمد، وهو المنفذ الوحيد لفناء القلعة، والذي كان، إضافةً لذلك، مدعماً بمتاريس متعددّة. ثم عثروا على الخزّان، بسدّه المحكم، يفيض بماء المطر وكذلك على مركز الحراسة ومخازن الغلال، وربما أيضاً على تلك الحجرة الكئيبة، حيث تخيّل بعضهم ومازال آخرون، شبح القديس مايول، مترقباً فديته. ـ ولكن، واحسرتاه! فتلك الأحجار المتقادمة آنذاك، قد هرمت منذ ذلك الحين، بحيث أنه يصعب علينا حالياً أن نتصورّ الشكل الأصلي لهذا الصرح المدهش، ثم ماكان عليه في أيام الموريين، حيث تبدو بقيته الباقية الآن كلغزٍ غريب. وهل من مقدام يسعى حقاً لحل رموزه؟ ولكن كل شيءٍ، بالتأكيد، في هٰذه البقعة، مغلفٌ بالألغاز. وكأن لعنةً قد طرحت هذا الموقع، بعيداً عن عالم المنقبيّن والفضوليين، بل وحتى عن أولئك المتعهدّين الاقتصاديين. وكأن الجميع في فزعٍ حتى من الملامسة البسيطة.

مصور رقم 2

يشكل ميناء سان تروبه المدخل إلى الفراكسينة حيث قامت منشآة عرب المغرب (السارازن/المورين)

فمهما كانت حينئذٍ حالة الحصن، ومامن أحدٍ يرفض فرضية احتلاله وصيانته سابقاً من قبل الرومان، فما من شكٍ في أن الساراكنس قد استقرّوا فيه وجعلوه برجهم الرئيسي للموقع المحصّن والمستند علاوةً على ذلك، الى الرغفان الشمعية الثلاثة وكذلك الى رعن (أنف الجبل الخارج منه والداخل في البحر م. م.) ميرْمِرْ، حيث نشاهد بعض أطلال التحصينات ـ قبل أن يتسّع ليشمل كافة موقع فَراكْسِينة... (انظر المصور رقم ٣).

Fraxinetum، فراكْسِينِتُوم، وهو الأسم الذي أطلقه الرومان على المنطقة (وبالتأكيد بسبب أشجار المرّان Fraxus التي كانت تشكّل، في سالف الزمان، أغلبية نباتات الناحية).

وحافظ الموريون، الذين تركوا أثارهم فيها بكثافة، على تسميتها، كغيرها من البقاع العديدة... وهاهنا، راح القادمون الجدد يشعرون أنهم ليسوا بغرباء عن الأرض، بل أنها حقاً منزلهم...

أما بالنسبة لتأريخ عملية انزالهم الأولى، ففي ذلك بعض المراهنة. وعلى كلٍ، فقد أخطأ من زعم أن ذلك قد تمّ، في عام ٨٨٩، إذ نجد، قبل ذلك بكثير، إشارات الى الفراكسينة، «مأوى المشركين»، وذلك في روايات الحوليات، (فعلى سبيل المثال، نلقى مورانت الذي يلاحقه مارتل، مجنوناً ثائراً، في عام ٧٣٦ أو ٧٣٧، يعتصم بالحصن مع حلفائه المسلمين، الملمّين جيداً، على مايبدو، بالموقع). ومما لا ريب فيه، ان بُوشِه قد صدق عندما قدّر مدة بقاء المستعمرة بمئة وخمسين سنة، على أدنى حدٍ. أما اسطورة العشرين قرصاناً(*) فليست سوى خرافة، طرفة فولكلورية.

(*) أي بموجب روايات الإخباريين الفرنجة القروسطيين وغيرهم من الغربيين، فيما بعد (م. م.)

مصور رقم 3

خليج سان تروبيه (خليج [illegible] آلبيانيس) في عصر [illegible]. كان البحر يتقدم داخل البر أكثر مما عليه اليوم، بحيث تبدو [illegible] جزيرة.

ويتابع لويتبرند قائلاً: «بعد أن وثق الساراكنس بمناعة المكان، ذي المنفذ الوعر، عاينوا الأصقاع المجاورة، وأرسلوا من يحمل الى ذويهم في اسبانية، نبأ إقامتهم على طول ساحل بروفنسة وإيطالية».

واحدثت هذه الدعاية، بما يُعْرَف حالياً: الإزدهار السياحي المفاجئ.

أولاء السيّاح الأفظاظ:

يعجز كلّ من يجهل أمور الصحراء وأحوالها، عن إدراك السحر الذي يخلّفه في نفس البدوي، بلدٌ محرج على هذا النحو، حيث المياه تتدفق هنا وهناك. ولذلك، فالمألوف لدينا يظلّ متعة من متع الفردوس الموعود، ومن هنا، ظهرت هذه السياحة المنظّمة، قبل أيامنا هذه، رافدةً ومجددة سكان المستعمرة، لتزدهر في القرن التاسع، ثم على نطاقٍ أوسع في القرن العاشر.

وبالضرورة، ثابرت أخبار الحوليات المسيحية (الغربية) على ذكر أعمال التخريب، التي اقترفها هؤلاء الزوّار. وبعد أن جعل اخباريونا الأوائل جميع وقائع هؤلاء المهاجمين دامية، جاء اللاحقون منهم ليبالغوا في الرواية: فلم يغفلوا عن ذكر فرِجُوس(*) الشهيرة وجُوجُولن(*) المدمرة وراماتُولِ(*) المحروقة وسان تُروبْه الخربة، وحاصل الكلام، نهب هؤلاء مختلف الربوع المجاورة لعرينهم، بل نشروا البلاء في مدينةنيس(*) وعموم الساحل، حتى بلغ جنوى(**) وحتى مابعدها.

وتحوّل الخليج الى مقرٍ لأسطول صغيرٍ من السفن، المجهّزة دائماً للإقلاع، للقيام بعمليات الصيد البحري أو القرصنة، أو لنقل البضائع أو

(*) تقع جميع هذه البلدات في جنوب فرنسة، بجوار الفراكسينة (م.م.).

(**) مدينة ساحلية في إيطالية الشمالية، على البحر الأبيض المتوسط (م.م.).

المسافرين؛ فالحركة شبه مستمرة؛ من ذهاب وإياب مع موانئ اسبانية وجزر الباليار وكورسيكة وسار دينية وحتى مع تونس والاسكندرية. وتعوّدت السفن المساحلة في البحر الأبيض المتوسط، على التوقف في الفراكسينة

ـ متى ستنطلق السفينة لصقلية؟

ـ غداً صباحاً، إن شاء الله.

ـ ماهو ثمن الرحلة حتى القاهرة؟

ـ يكفينا خروف واحد لذلك.

أهي مغامرة ساحرة؟ كلا! على الإطلاق. لقد تعوّد الناس كثيراً على السفر في ذلك العصر، ولم يعد يقتصر الأمر على الساراكنس، إذ قضت صفوة المجتمع نصف وقتها في التنقل والمغامرة. ويكاد المرء لايصدق ذلك، وهو القابع في أيامنا هذه في بيته، تستغرقه مشاغله وهمومه اليومية، كما أن استقرارنا المعهود كان معدوماً. في الواقع، لم ينقطع النبلاء المسيحيون (الغربيون م. م.) عن التعارك، وبذلك غابوا في أغلب الأحيان عن قصورهم، حيث زوجاتهم المغرمات، وقد حُرِمن من كل أنواع رعايتهم ودلالهم. ولذلك جاءنا هذا العدد الكبير من الأولاد الذين لايشابهون آباءهم، إضافةً لهذا العدد الوافر من أبناء الزنا، الذي خلّفوهم وراءهم، في ترحالهم الطويل. ولذلك، فمن المتعذر علينا أن نتحقّق من شجرات نسب ذلك العصر، كما أنني أتحدّى أي أنسانٍ يطمح الى إعادة تكوين سلسلة نسب آل بُوْن وآل غلَيُوم والآخرين من آل جِيبلَن، هؤلاء جميعاً الذين رسموا بشكل حاسم مسيرة التاريخ وانعطافاته، في عالمنا الغربي، في نهاية الألف الأول.

وينطبق الأمر ذاته على أصحاب المقام الكنسيين، الذين امتطوا خيولهم محاربين، فأهملوا واجباتهم اليومية تجاه الرعية. (ففي الهزيمة المنكرة التي كبدها بحراً، في عام ٩٨٢، الساراكنس مع حلفائهم، بيزنطيي القسطنطينية، أوتون الثاني[١]، نلقى، كالعادة، في عداد الجيش المهزوم، عشرات الأساقفة، الذين خرّوا صرعى بسوادهم الأعظم، ولذلك، فلاعجب أن تصبح أبرشياتهم ضحيّة المغتصبين، المحرومين كنسياً. وباختصار، فحب التنقل في مختلف أنحاء المعمورة ليس بالأمر الجديد. وعندما نتذكّر السفن الحربية، التي لاتقلّ عن مئتي قطعة بحرية والراسيّة في ميناء المرية[*]، وكذلك آلاف الفنادق الموزّعة حول الميناء، إضافةً لحركة العبور البحري الكثيفة نحو اسبانية، ثم القراصنة البربر[**] الذين يعترضون سبل الملاحة في البحر الأبيض المتوسط، لايأبهون لأحد باستثناء الأسطول البيزنطي، فعندما نتذكّر كل هذه الأمور، يحق لنا حينئذٍ تصديق بعض روايات اخباريينا، ولاسيّما ماجاء في الوثائق العربية، وجميعها تدل على أن عدداً كبيراً من الناس راح يتردد على الفراكسينة، وبتعبير أهل المهنة الحاليين، أضحت سوقها رائجة جداً.

(١) هو أوتون الثاني (٩٥٥-٩٨٣) ابن أوتون الأول الكبير (انظر اعلاه) ملك جرمانية ثم امبراطور الدولة الجرمانية المقدسة. (م.م.)

(*) انظر اعلاه (م.م.)

(**) نسبةً الى البربر، في افريقية الشمالية (م.م.)

رأس جسر

أهي سبارطة الجديدة(*)؟ أم دويلة شيوعية؟

اختلف الأوربيون المعاصرون في الرأي حول كيان الفراكسينة ودورها، فمن زاغ منهم، اعتبرها «ديمقراطية شعبية»(**)، بينما قارب آخرون الصواب عندما شبّهوها ب «وكالة تجارية تعتمد على منطقة خلفية، ذات تنظيم عسكري»(***)، ويُعْتبَر (ج. لاكاس) أفضل نموذج لهؤلاء، ثم أخذت الاجتهادات تنهمر. وعلى كلٍ فمختلف الكتّاب المعاصرين، وقد حانت يقظتهم، ألحّوا على أهمية هذه المستعمرة، التي تُعْتَبر كما يقول المؤرخ (دِميْشل) «المؤسسة الأكثر ديمومة للمسلمين في الامبراطورية الكارولنجية»[1] أو كما يراها (ج. ب. رُوْ) «دولة اسلامية مغروسة في قلب العالم المسيحي الغربي».

وباختصار، تحولّت الفراكسينة الى رأس جسرٍ ينطلق منه الساراكنس ليسطوا سطوتهم على جزءٍ واسع من أوروبة. وكما يقول جوست أو لِيْفِيه[2]:

«قبل القرن العاشر، وبعد أن تغلّل الساراكنس، عبر مختلف شعاب

(*) المقصود بسبارطة المدينة اليونانية، الواقعة في شبه جزيرة البيلوبونيز، وقد لعبت دوراً كبيراً في العالم اليوناني من القرن السادس حتى القرن الرابع (ق. م) واشتهرت بتنظيمها العسكري الصارم وبأس جنودها في الوغى (م. م.)

(**) المقصود بذلك النظام الذي نشأ في أوروبة الشرقية بعد الحرب العالمية الثانية، حيث نشأت عدة دول تدور في الفلك السوفياتي، وبذلك تدور الفراكسينة ك«دويلة شيوعية» و«ديمقراطية شعبية» بفلك الدولة المركزية: الأندلس. (م. م.)

(***) اشارة الى الوكالات التجارية الغربية التي مهدّت للاستعمار الفرنسي والانكليزي، في القرن الثامن عشر، إن كان في الهند أو في آسية الشرقية (م. م.)

(١) نسبة الى كارلوس ماغنوس (شارلمان) (م. م.)

(٢) كاتب سويسري (١٨٠٧-١٨٧٦). (م. م.).

جبال الألب، في بلاد الدوفينة والبِيِمون والمُونْفِرّى، ووديان السوز ومُورين وتارنّتيز(*)، انحدروا الى بقاع الفاليه وإقليم فو»(**). حقاً، لقدآن الأوان لنعدّل اصطلاحات معرفتنا التبسيطية ونلغي خرافة شارل «مطرقة البرابرة» والمنقذ المرسل من العناية الإلهية، ولنقلع صادقين عن ذكر عبارات: غارات، أعمال قرصنة، غزوات، حملات سلب مشتّتة، فكل هذه المفردات لاتفي مطلقاً بالغرض؛ لأن الموريين بمدّهم نحو جبال الألب وعبرها، ليحطّوا رحالهم عندنا في الفاليه وحتى أبعد من ذلك في بقاع الراين وسان غال، ان توسعهم هذا لهو أقرب الى عملية إقامة المستعمرات: ومن المستحيل محو آثارهم.

والأمر الأسوأ، هو أن هؤلاء الغرباء، عندما استقرّوا في عديدٍ من المواقع، كان ذلك بناءً على دعوةٍ وُجِّهت اليهم، واثقين بوعد من استغاث بهم؛ ولذلك، فلا داعي لاستغراب غضبهم العنيف ولأفعالهم الانتقامية، بعد أن تأكدوا بأنفسهم من أن هذا الغير قد غشّهم وحرمهم أجرهم بل ويسعى لاستبعادهم، بطرحهم كأمرٍ غير مرغوب فيه، وذلك بعد أن أشبع رغباته. لقد وصفهم بعضنا بالبرابرة...

وهاهو ابن جلدتهم، الجغرافي ابن حوقل(٢)، الذي سنتعرّف اليه، يكيل لنا الصاع بصاعين. أفلا يلمّح الينا، نحن المسيحيين الطيبين، عندما يفضح مافي البلاذ المحتّلة من «البغي والحسد والنكد، حسب

(*) تقع الدوفينة أقرب الى الجنوب الشرقي في فرنسة، حاضرتها الحالية مدينة غُرْونبل؛ البيمون، في ايطالية الشمالية الغربية، حاضرتها مدينة تُورينو؛ مُونْفرّى، في لومباردية، ايطالية الشمالية؛ تقع بلدات السوز ومُوْرِين والتارنّتز في جبال الألب الفرنسية (م.م.)

(**) مقاطعتان في سويسرة دخلها عرب الأندلس، انظر أعلاه (م.م.)

(٢) رحّالة وجغرافي عربي من القرن (الرابع هـ=العاشرم.) جاب العالم العربي الاسلامي من المشرق الى المغرب، أي عاصر أيام الفراكسينة. له مؤلف «**المسالك والممالك**»(م.م.) وعرف ايضا باسم «**صورة الأرض**»

ماخامر أهل الثغور من ذلك الى استباحة الفساد والفسوق والغدر والغيلة والتضاد والعناد، فَجُعِلُوا عبرةً للمعتبرين وموعظة للسامعين الناظرين: ولن يصلح الله عمل المفسدين ولا يضيع أجر المحسنين»(1).

ومن يزرع الريح يحصد العاصفة: حكمنا عليهم بالبربرية فأجابونا بأننا قوم همج.

ويجب، بكل تأكيد، أن ندرك الفرق، وأنه لأمر ضروري وحساس، بين العبقرية العربية، علة النهضة الاسبانية، وأولئك الموريين الذين توغلوا في ربوعنا. ولانظن ان العلماء والصناع المهرة وأرباب العمل السوريين، وكذلك مالكي اسرار الصنائع في دمشق وسمرقند، اضافة لمعماريي بغداد والمخترعين وأصحاب الحرف والتجار، كانوا بشكلٍ أو بآخر على رأس موجات الاقتحام التي لم تخلو من بعض الأفراد الأفظاظ. وبعد ذلك فقد جاء دور الخبراء المهرة الذين توجهوا الى تلك الأمكنة، حيث ظفروا بالطمأنينة والاستقرار لإقامتهم.

جبل كلال:

مع ان هذا الاسم شائع في عالم مكتباتنا، فقد ظل سراً دفيناً. وقد اختلف المترجمون في ضبط كتابته كالتالي: جبل الفُلال، دِجبِل الفَلال، دِجبِل كِلاَل، دِجبِل فَلاَل أو بخلاف ذلك، ومع ذلك، ظل هذا الاسم يشير، على المصورات العربية القديمة، الى جزء قاري غريب منفصل، يطفو بين أوروبة وأفريقية. وذكرته النصوص كـ«جبل القمم» الشهير في مختلف أنحاء العالم الإسلامي. وبعد أن أعياهم الأمر، أقر كتابنا بعجزهم عن إيجاد الحل. وأصبح هذا العناء الضائع نسياً منسياً، مع أنه كان قادراً على اثارة اهتمام بعض الباحثين الهواة. (انظر المصور رقم ٤).

(1) ابن حوقل، **صورة الأرض**، دار الكتاب الاسلامي، القاهرة، بلا تاريخ، ص ١٨٥.

مصور رقم 5

جبل المورين وخليج سان تروبة حيث تبدو منطقة الفراكسينة كجزيرة محاطة بالمناطق المعمورة والمنقعية.

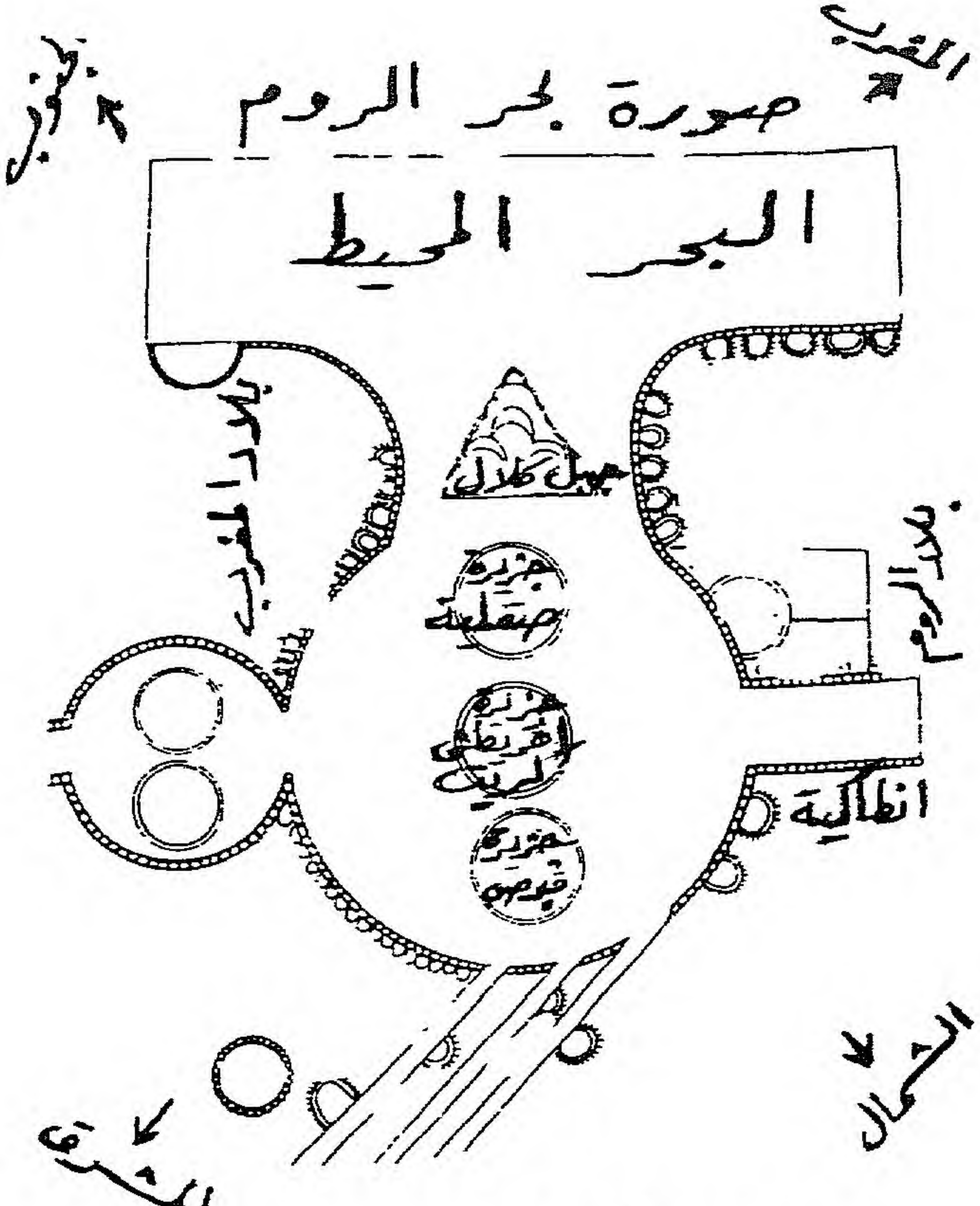

مصور رقم 4

تظهر عدة وثائق خرائطية ترقى الى عصر الفراكسينة البحر المتوسط في حوضه الغربي وقد ضاق عند جزيرة مثلثة الشكل عرفت بـ "جبل كلال".

ولكن في عام ١٩٦٤، وتحت رعاية الأونسكو، نشرت « اللجنة الدولية لترجمة الروائع » مؤلف إبن حوقل وعنوانه « **صورة الأرض** » . (وهو نفس كتاب « **المسالك والممالك** »)(م . م .) .

ويذهل المرء أمام مصور البحر الأبيض المتوسط المنبسط على ثلاثة صفوق (اجزاء تُثنَى على بعضها البعض) والمُنجَمّ بأرقام مطابقة لشروح هامشية .

ونلاحظ، للوهلة الأولى، أن هذا التكوين ليس بالحجة المقنعة عن مهارة الجغرافيين العرب القدماء، إذ أنه أقرب الى مخططٍ اجمالي أولي أو كأنه رسم تخطيطي أو بالأحرى خريطة جزيرة الكنز. ولكن هل هو حقاً المصور الأصلي؟

إن كان من المستحيل أن نعين موضع الفراكسينة، فبالمقابل تتراءى لنا جزيرة قرب الساحل الاسباني، قائمة بذاتها، ومن الممكن أن نقرأها، على مايبدو، دِجبِل فُلاَك أو جبل كِلال .

قد نكون تجاه مفتاح اللغز بهذا الشعاع المنير. ومن حاول أن يقابل هذا الشكل المثلث، بشكله الغريب (انظر المصور رقم 4)، والذي يعيق منفذ الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط بالوثائق الخرائطية الأخرى، المعاصرة لعصر الانتشار الإسلامي، لظهر هذا الشكل كسدادة صغيرة، بعض الشيء، معلقةً بعنق إبريقٍ. أُورْكَا(*): هاهنا سر اللغز، فهذا الجسم المثلث يرمز الى الفراكسينة وحسب، وفَلّ هو جمع فِلْ، أي شجرة بلوط الفلين (اسم مشتق من كلمة فِلُّوس اليونانية، وتعني شجرة بلوط الفلين ولحاء هذه الشجرة في الوقت ذاته، حيث حلت أشجار بلوط الفلين تدريجياً محل أشجار المُران، وقد أشار المصور، ضمن الجسم المثلث، الى تجعيد الغابة بالاهلة (جمع هلال) الثلاثة، وتتطابق مختلف أوصاف الرحالة العرب، بحيث « جبل القمم» الذي يذكرونه مراراً وتكراراً، لايمكن أن يشير إلا للأرغفة الشمعية

(*) وهي العبارة التي أطلقها العالم اليوناني أرخميدس (٢٨٧ – ٢١٢ ق . م) وهو في المسبح، بمعنى «وجدت السر» حيث يقول: «كل جسم ينغمس في سائل يتلقى دفعة عمودية من أسفل الى أعلى توازي ثقل ما شغل مكانه من السائل (م . م .)

الثلاثة مع الأحراج المجاورة، بل وأبعد من ذلك، أي جبل الموريين بأكمله: جبل أشجار بلوط الفلين . . (انظر المصور رقم ٥).

وهنا تعترضنا عقبة ذات أهمية. فالفراكسينة، كما نعرفها، ليست جزيرة، ولم تكن مطلقاً فيما مضى. . ويسرع البعض في ردهم: بكل تأكيد كانت جزيرة.

كان البحر، فيما مضى، اكثر امتداداً الى الداخل عما هو عليه حالياً، بحيث كانت مياه اليم تحف ببقعة غريمو. كان لجدولي الجيكل والغارد، المجتمعين حالياً في مصب واحد، يدفق ماءه في لجج مياه المد المالح مابين بورغريمو ومارْين غُوْغُولَن، كان لكل منهما مصبه الخاص به، إذ كان الخليج اكثر اتساعاً وعمقاً ويغمر قاعدة هضبات أخرى.

(وإذا رجعنا الى عمود الإرساء الروماني المعروف - أو المفترض انه من العصر الروماني - والقائم على التلة المشرفة على ألبِنْجَا، يتراوح فارق منسوب المياه مابين ثمانين الى مئة متر.)(١)

وبحسب رأيي المتواضع، فليس هذا بيت القصيد. فقرية غريمو القائمة بمفردها على رابيتها. . جبل كلال الرهيب، الذي يسد مدخل البحر الأبيض المتوسط، وباسمه «الذي بلغ رجعه حتى قلب آسية». كما جاء في الوثائق العربية. . ولذلك. فما المانع من أن نفترض بكل بساطة، ان العرب اشاروا بذلك الى عموم منطقة الفراكسينة: بخليجها وحصونها وغابتها ومزارعها.

وليوضحوا دور الفراكسينة وأهميتها، فصلوها عن القارة؟

ولايدع وصف ابن حوقل أي مجال للشك، عندما قال:

«وجبل الفُلال الذي بنواحي افرنجة بأيدي المجاهدين عمارة وحرث ومياه وأراض تقوت من لجأ اليهم، فلما وقع اليه المسلمون عمروه وصاروا في وجوه الافرنجة والوصول اليهم ممتنع، لأنهم يسكنون في وجه الجبل، فلا طريق اليهم ولامتسلق عليهم إلا من جهة هم منها آمنون ومقداره في الطول نحو يومين». (ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص ١٨٥).

---

(١) في عام ٧٥٩، تشير وثائق ذلك العصر، الى مدينة ناربون، الخاضعة حتى تلك الفترة للإدارة الإسلامية، على أنها مينا بحري كبير. (المؤلف)

وبليد الذهن فقط، من لايسلم بأن هذا التعريف، المختلف، من جهة أخرى، بأسلوبه وإيجازه عن أخبار الحوليات المسيحية (الغربية) المطنبة، يشير الى الفراكسينة وقلعتها، ويطابق تماماً واقع الناحية. وأما يوما السير على الأقدام فتعادل طولانياً جملة هضاب جبل الموريين حالياً. وفضلاً عن ذلك، يناقض هذا التعريف خاصة الرأي الشائع ومفاده، ان أولئك الموريين لم يكسبوا رزقهم إلا عن طريق أعمال السلب والنهب، لعجزهم - كما زعموا - وراثياً وفطرياً عن زراعة الأرض.

كلا! ولاداعي للبحث عن الجزيرة، (زدعلى ذلك ان كلمةDJEBEL لاتعني في العربية سوى جبل، منطقة جبلية). وأمامنا طريقتان، لاتناقض بينهما، لتفسير الخريطة التوضيحية التي أضلت باحثينا.

فأولاً، قد تكون هذه الوثائق قد وضعت لتبهر أذهان المغفلين. وإلا، فكيف نعلل تأكيدهم أن جبل كلال بموقعه الحاسم، هو أكثر أهمية، بالنسبة للعالم الاسلامي، من أعمدة هرقل؟(*).

ثم ماهي أهمية الفراكسينة على مستوى شأن البحر الأبيض المتوسط؟ ولذلك التزموا ابرازها في سياق النص، لعرضها أو بالأحرى لفرضها، على ربابنة السفن، الغافلين عن الزمن العابر والساهين عن المسافات التي طووها والمهددين بالضلال عن قصد سبيلهم. وفي هذا الصدد، أضحى التضخيم والمغالاة أمرين طبيعيين.

أما طريقتنا الثانية لتوضيح المشكلة، فهي أكثر تعقيداً من الأولى، لصلتها بالإدراك الذهني والنفسي للعربي كعربيٍ وكذلك بلسانه وبنفس الكتابة القرآنية. وكم يبدو هزيلاً، ذلك المنطق الديكارتي(**) (ولاندري من

(*) عُرف جبل طارق قبل الفتح العربي الاسلامي لاسبانية - نسبة الى طارق بن زياد - كما نعلم - باسم أعمدة هرقل. إذ تقول بعض الاساطير ان هرقل هو الذي أبعد قارة أوروبة عن افريقية وفتح المضيق الذي يصل بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي(م.م).

(**) نسبة الى الفيلسوف الفرنسي ديكارت (١٥٩٧ - ١٦٥٠)، اشتهر بكتابه «**طريقة المنهج**»، وكان له الأثر الكبير في الفكر الغربي الحديث، حيث يقول: «أنا أفكر إذن أنا موجود»(م.م.).

هو الأحمق الذي أطلق تلك التسمية)، الذي يعترض سبيل التواصل العميق مع هذا الانسان العربي، الذي يختلف بفكره عما لدينا، ويتفوق بحدسه علينا، ولاجدوى من البحث في نقاط التعادل بيننا وبينه، وأقول هذا عن تجربة مريرة، فعندما حاولت ملياً وبدون جدوى، أن أوضح بالفرنسية نصاً بعنوان «**النقطة**» للشيخ العلوي (والمقصود فعلاً نقطة منفردة ووحيدة، تظهر في شكل اسم الخالق والمشعة تأملات لا تنضب). وعسى أن يحالفني الحظ يوماً ما، إن شاء الله.

وظلت هذه الجزيرة الخيالية، التي تظهر على الورق من أسباب قلق علمائنا. ولاأدري، لماذا لم يتبينوا ان الجبهة الغربية لافريقية، التي احتلوها واخمدوا فتنتها بهذه السرعة المذهلة، قد اطلقوا عليها اسم جزر المغرب؟ (ألا نقول حالياً الجمهورية الجزائرية (م. م.):

وفي الحقيقة، يجب ترجمةDJEZIR بجزيرة (والأصح DJEZIRA بمعنى جزيرة أو DJUZOR بمعنى جزر في الجمع (م. م.) وأن نسلم بأنه، إن كانت الجزيرة لاتعني، بالنسبة اليهم، سوى جزيرة، فقد تشير الى ماهية أخرى لاندركها، مع أخذها تماماً شكلاً تخطيطياً لجزيرة، منقولة من مكان الى آخر.

أنت على موعد مع الحظ في الفراكسينة:

وهاهم أولئك الموريون، وقد استقروا بأعداد كبيرة في جبل كلال، وهي التسمية التي أطلقها العرب على الفراكسينة (إن لم يكن سائر مرتفعات الموريين). وانتشروا من موقعهم الحصين هذا، في القرن التاسع وبخاصة في القرن العاشر، ليبلغوا احواض الموز والراين وحتى بحيرة قسطنس(*)، ولكن، ماهي الوسيلة لمعرفة هذه المنشأة الخارقة، التي لم يحدثنا عنها بتاتاً معلمو المدارس: ماهو قوامها، ونظامها الأساسي، وكيف كانت روابطها مع سلطات شبه الجزيرة الاسبانية؟

(*) الموز والراين: نهران أوروبيان يصبان في بحر الشمال. أما بحيرة قسطنس، فتتشكل من مياه نهر الراين وتقع بين ثلاثة دول: سويسرة وألمانية والنمسا. مساحة سطحها (٥٤٠ كم٢) (م. م.)

رأى بعضهم أن تنظيمهم قريب من الديمقراطية العسكرية الخاضعة - عن بعد - لسلطان قرطبة السياسي - الديني.

لم يحاول الأمراء ثم الخليفة فيما بعد أن يتبرأوا من أعمال أولئك المجاهدين، وهذا أمر بدهي، علماً أنهم خدعوهم أحياناً بشكل أو بآخر.

وهكذا، ازدهر هذا الفرع الهجين بشكل مذهل. ونجد لوحة رائعة ليوحنا دو غورتسه، مندوب أوتون الكبير، امبراطور جرمانية، في وصف المفاوضات التي أجرها من عام ٩٣٦ لعام ٩٣٧، مع عبد الرحمن الثالث، بهدف «إزالة تلك الدولة الإسلامية، التي امتدت حتى حوض الراين، انطلاقاً من سواحل بروفنسة»، وراح الخليفة يماطل لكسب الوقت، قبل أن يوجه ضربته الحاسمة.. وهكذا، يكرر التاريخ نفسه.

ومن جهة أخرى، لم يصل الى مسامعنا أن نجدات قد وصلت من اسبانية لمساعدة جبل كلال، ذي الوضع الخطر، وحتى أمام هجوم الأسطول البيزنطي، في عام ٩٤٢، لم يبد الخليفة أي اهتمام. والأمر الأكثر احتمالاً، هو توافد محاربين من المغرب، وذلك بعد أن اعترض أولو الأمر في اسبانية، حيث النظام والسلم، سبيل المغامرين، ولذلك، فمن أراد الثروة من هؤلاء المغامرين، توجه الى «جبل القمم».

ثم، ألم تعمل قرطبة على تشجيع هجرة بعض أبنائها، ممن يثيرون القلاقل، وبتعبير آخر، أضحت الفراكسينة، بالنسبة لحكام الأندلس متنفساً للتخلص من الرافضين.

مخيّم ومراصد

لم يكن مغاوير المغرب والأندلس هؤلاء سوى عابري سبيل، ولم يعتبروا الفراكسينة مستقرهم الأخير. ولانعتقد أنهم بنوا حاضرة لهم في المنطقة، وإلا لكانت اطلالها لافتة للنظر. ولعدم وجود معلومات عن الموقع،

فمن هو المقدام القادر على حمل عبء التنقيب في باطن الأرض والوثائق معاً. وحينئذ، قد يفاجأ المرء بمعسكر ضخم، ذي تنظيم عسكري متطور، يضم خنادق دفاعية ومراصد، إضافة لمنظومة إنذار: من إرسال برقي بصري وإشارات الانذار وأعمدة الدخان - وهو ابتكار عربي على الأرجح- وبعد تدقيق الوثائق جيداً، نلاحظ إدارة جماعية لشؤون الموقع، بالاشراف الأعلى للفقهاء.

ويبقى سؤال ملح آخر حول احتمال وجود مراكز حصينة اخرى غير الأرغفة الشمعية الثلاثة وميرمر وقلعة الليغوريين (- إذ كما نعلم ينسب هذا الصرح في أصوله الأولى لأسلاف البروفنسيين الأوائل)، كأعلام لتعيين مخطط البقعة، كغريمو مثلاً (آثينوبوليس القديمة؟) وغوغولن أو هراقلية ككَابارِيَّة، حيث من المفترض أن نجد أطلالاً ما. . وكونت المجموعة «محرزاً» يشبه تماماً الفكرة المبتكرة، التي جالت في ذهن خبرائنا العسكريين السويسريين، في غضون الحرب العالمية الثانية، مع مراكز دفاعية ثابتة وأخرى متحركة، ومؤن مخبوءة وقوات عسكرية في «حالة تأهب».

ولكن لاداعي للمبالغة، إذ خيمت اللامبالاة على هذه الدار الثانوية، حيث كان الموريون يقضون عطلتهم.

وحقيقة الأمر، ان الموقع لم يتعرض للتشويش إلا نادراً. كان أهله يعيشون بسلام، وأي سياج أفضل لهم من هذا؟!

وراح هؤلاء المخيمون، الذين احتلموا الأوار النهاري لكثبانهم الرملية مع بردها الليلي القارس، يترقبون تحت سماء بروفنسة العذب، مستقبلاً صاخباً.

وأعانهم زهدهم وبساطتهم في المأكل على الملاءمة، بطريقةٍ مدهشة، بين نتاج الصيد البري والبحري مع غلال هذه المربعات (المساكب) من القمح الأسود والبطاطا(*) والشوندر، التي كانت تزرعها النساء في فرج الغابة

(*) كما نعلم، موطن نبات البطاطا هو امريكة، ولم تعرفها أوروبة إلا اعتباراً من عام ١٥٥٠، أي بعد اكتشاف امريكة بنصف قرن تقريباً، بل ان فرنسة نفسها لم تعرف البطاطا إلا في القرن الثامن عشر(م.م.)

المجاورة. (وكما نعلم، ولأيام خلت، كانت النساء في منطقة الفالية ينجزن الأعمال الأساسية لصيانة ورعاية أشجار كروم العنب). تلك الغلال التي أمنت الدعم الضروري الآخر. ويضاف الى ماذكرناه لبن الغنم وكذلك هذا القطيع من المواشي التي يسمنونها استعداداً لعيد الأضحى. و«أليس الله بكاف عبده». وكانوا يؤدون رياضتهم البدنية (صلاتهم) تلبية لنداء المؤذن، لاهين في هذه الأجمة الرحبة، حيث يبرز من فترة لأخرى، رائد كشاف على تلة جرداء، يذكرنا بغواص طاف - وينتاب كل منهما شعور غريب، وكأنه في عالم آخر - ومن عجيب أمرهم عسفهم النساء، صاقلين سلاحهم استعداداً للقتال(*)، ثم يستغرقون في أحلامهم، لساعات طويلة، وهم يتأملون انسياب مياه الجداول.. قطعاً! لقد آن الأوان لكتابة تاريخ الفراكسينة.!

هذه الذرية الملعونة:

أقام هؤلاء الفاتحون منشأتهم الأكبر في الفراكسينة - التي أصبحت، إذا صح التعبير، محطة فرز ومركزاً لإعداد الهوارة - علماً انهم أقاموا مراكز في مناطق أخرى. كما هو الحال مثلاً، في الدوفينة(**)، التي يقول عنها بوشه «حيث تحصنّوا بشكل جيدٍ وأصبحوا أقوياء الى درجة كبيرة، ويتراءى ذلك جلياً في بعض الأسماء كـ: مون مور وبوي مور بمعني جبل وحصن الموريين والساراكنس، لأن كلمة بوديوم التي ترجمناها عامياً بمعنى منصة، تفيد بمعناها اللاتيني الصحيح: ربوة، هضبة ويمكننا أن نتابع على هذا المنوال، في ذكر مواقع موريين في السافوى(***) الى غير ذلك من الأمثلة.

وكم نحتاج من الوقت للبحث عن الأماكن التي تذكرنّا بأسمائهم.

وهل بامكاننا أن نقبل الحجج الواهية لمن زعم ان هؤلاء الموريين قد

(*) لاندري أهو ذمٌ في باب المدح(م.م.)

(**) مقاطعة فرنسية (انظر أعلاه). (م.م.)

(***) يدل اسم موريين بجذره (مور) على الموريين. والسافوة مقاطعة في فرنسة الجنوبية متاخمة لإيطالية وسويسرة (م.م.).

لقحوا الأسماء الجغرافية لألف سنة بمجرد مرورهم في منطقة ما، فلا ندري، هل هبطوا فجأة بالمظلات؟ ولماذا لانسلم بأنهم علّموا درب مسيرتهم بنقاط ارتكاز وبمستعمرات ثابتة لتشكل (سلسلة من المفيد اعادة انشائها). وهكذا، ذروا مناطق شاسعة من أوروبة، مخلفين آثاراً خالدة، ليس فقط في تسمية الأماكن، ولكن أيضاً في طباعنا وموروثنا وأخلاقنا، وعلينا هنا أن نعترف للكنيسة لجميلها، وهي التي أدركت الخطر تماماً: فراحت الحوليات الكنسية تصب اللعنات على شبق الموريين الجنسي، وعلى أولئك الذين يستولون على جميع النساء، لدرجة انهم تزوجوا أيضاً الراهبات، ليخلدوا بذلك عرقهم الممقوت.. ولافائدة من قرع ناقوس الخطر وتلاوة التعاويذ.. فنداء الطبيعة كان الأقوى. وبعد مضي قرنين من الزمن، وقع الذي لابد منه.. ثم مصصنا العملية وتمثلناها.

والتاريخ فقط هو الذي ظل سليماً، إذ، عندما أخرجهم أسلافنا نهائياً من مسرح التاريخ، في عام ٧٣٢، (أي معركة بواتية(م.م.)) نقحوا البقية الباقية بعناية فائقة، محتفظين فقط بأخبار المصائب المتفرقة التي أحدثوها. ويمكن أن نشبه تواجدهم هذا بمجموعة زعران مختبئين في المغاور، يطلون برأسهم بين الفينة والفينة وحينئذ يلزم استدعاء الشرطة.

ونجدهم، في عام ٧٩٣، متحصنين بشكل غريب في آرل (مدينة فرنسية في الجنوب م.م.)، حيث حفروا أخاديد للجوء اليها أو للفرار عبرها، إن تعرضوا للهجوم. ويقول بعضهم، ان شارلمان ذاته قد اضطر للمجيء على رأس حملة، لطردهم من الموقع. ولكن بعد فترة وجيزة ويظهرون مجدداً في مدن أورانج ومونتليمار وفالنس وفيين (واقعة كلها في حوض نهر الرون الأسفل)، والمدهش في الأمر انهم لايعيشون في أحجرة، متوارين عن الأنظار، بل يعلنون عن نفسهم في القصور. وفي عام ٨١٢، عانت نيس والناربونيز من غاراتهم، قبل أن يجتاحوا جنوى وبيزى

وشيفيتافكيا. (*)ثم جاء دور الكامارغ(**)، في عام ٨٦٩، مما يعني ان هذه السبخات كانت مسكونة، والأسوأ مافي الأمر، أنهم ألقوا القبض على روثلاند أو رولاند، أسقف آرل، ونتج عن ذلك هرجة منكرة: إذ أن هذا الرجل التقي كان مريضاً، فمات وهو على ظهر قواربهم، وعندما بادلوه، في مقابل فديته، كان جثة هامدة، ولكنهم كسوه كامل كسوته وطروا سحنته بالمساحيق وغطوا رأسه بقلنسوة الأسقفية. وفي السنة التالية، نهبوا ابرشية إكس. أما ماجرى في عام ٨٧٧، فيخص شخصياً البابا المسكين يوحنا الثامن، الذي أذعره وجودهم في غوطة روما، حيث صادقوا، ويا للعار، المسيحيين. (هكذا جاءفي الوثائق الكنسية م. م.) استغاث البابا بشارل الأقرع[1]، الذي توجه بهمة فاترة لنجدته، ثم تراجع فجأة، حيث قضى نحبه مسموماً في طريق العودة، وفي عام ٩١٥، ظهروا مجدداً أمام أبواب روما. وهذه ليست قصتنا، وراحت الغيوم الداكنة تتراكم في سماء الفراكسينة، مهددة كيانها.

الملك يبدّل رأيه:

قبل ثلاثين سنة من عام ٩٧٢ الحاسم، راحت قواعد الدولة الإسلامية «المبثوثة في قلب العالم المسيحي» ترتجف، عندما عزم هوغ، كونت آرل وملك إيطالية، على تدميرها.

والخطير في الأمر، أنه لم يكن بمفرده، إذ أنه خطّط أمور الحملة مع الامبراطورالبيزنطي قسطنطين السابع وحميه رومان لكابن. تعهدهوغ بتجهيز الجيش ووعدت بيزنطة بتقديم الأسطول. ومع أن الاسطول البيزنطي لم يكن على قدرته الضاربة السابقة، فما زال يمتلك السلاح المطلق، السلاح الذري لذلك العصر، ونعني بذلك النار اليونانية، ذلك السلاح الذي أنقذ بيزنطة مرتين: في عام ٦٧٧ وعام ٧١٨. (***)

(*) كلها مدن ايطالية تطل على خليج جنوى أو مجاورة له، في البحر الأبيض المتوسط (م. م.)

(**) منطقة واقعة بين الفرعين الرئيسيين لدلتا نهر الرون، على البحر الابيض المتوسط (م. م.)

(١) ملك فرنسةثم امبراطور الغرب (٨٢٣ - ٨٧٧) (م. م.)

(***) المرة الأولى في أيام معاوية والثانية في عهد سليمان بن عبد الملك، بقيادة مسلمة بن عبد الملك، وبوفاة الخليفة ومجيء عمر بن عبد العزيز، أمر قائد الحملة بفك الحصار (م. م.)

تحرج موقف جبل كلال مابين عامي ٩٤٢ و ٩٤٤، وكاد هوغ أن يخطف اكليل النصر من شارل مارتل، وبشكل لم يسبق له مثيل (لوجود العدو بعد عام ٧٣٢، أي بعد القضاء الوهمي عليه في بواتيه). ولكن . .

دمرت النار اليونانية، ذلك السلاح الرهيب، مُرْفَئات الساراكنس الراسية في الخليج. وانتقلت النيران الى المناطق المجاورة، وأشرفت الفراكسينة على الهلاك، لاسيما ان هوغ تلقى دعماً من بيزى وجنوى اضافة لمختلف أولئك الذين كانوا يتلهفون للثأر من الموريين، وكان يسعى ليدخل اسمه في التاريخ، واكتظت الفراكسينة بالمنهزمين المتجهين شمالاً، وانهالت تباشير التهنئة على مخيم المنتصر.

وفجأة، وكما حدث مع حاجي بابا الاصفهاني[1]، انقلب الموقف رأساً على عقب، في اللحظة الأخيرة، عندما تدخلت العناية الالهية لقهر عدو الدين، وحثت هوغ للتفاوض مع الموريين، الذي عرض عليهم عقد حلف بين الطرفين مع وضعهم تحت حمايته. . ولكن، ماالذي حدث في واقع الأمر؟

وصل الى مسامع الملك أن برانجه، ماركيز إفْرِيَة، (*)المتقلب والخؤون، برانجه الثاني هذا، كان منهمكاً في تجهيز جيشٍ في آلامانية(**)، ليقوده الى ايطالية، حيث يخطف منه عرش إيطالية . فمن قدم له المال اللازم؟ مهما يكن، فالحقيقة ان هذا الأثيم قد تمكن من استعادة الحظوة لدى الامبراطور، وإن الحملة وشيكة. كان هوغ على قناعة ان مملكته، المتزعزعة الأركان كانت على اتم الاستعداد لاستقبال سيدٍ جديد. ولذلك، أصبح المكوث بعيداً عن مملكته عديم الجدوى، بل صار ضرورياً أن يحدث انقلاباً في الموقف، لاسيما أنه كان بحاجة للرجال والدعم، فسعى لضمانٍ مساعدة

(١) اشارةً الى علي بابا والأربعين حرامياً، ولاتقول رواية شهرزاد اصفهان، بل احدى مدن فارس. (م.م.)

(*) حاضرة ايطالية في مقاطعة البيمون (م.م.)

(**) نسبة الى آلامان، من القبائل الجرمانية، بل من أقواها وأكبرها، ولذلك أعطت اسمها لألمانية. (م.م.)

أولئك الساراكنس، علماً ان الموقف كان لصالحه. . كان تاجه في خطر، وبقدرة هؤلاء الموريين مساعدته لحسم هذه القضية لصالحه، تلك القضية التي أصبحت الأكثر أهمية من أي موضوع آخر.

أما بنود الصفقة التي أحنقت العالم المسيحي وجعلته يصب اللعنات على رأس هذا الأمير الشائخ فهي التالية: ترك هوغ للموريين جبل كلال وبالمقابل تعهد هؤلاء بحراسة ممرات جبال الألب، ليسدوا الطريق أمام مرتزقة برانجه، وليفرضوا، كأجر لهم، ضرائب وأتاوات على جميع المسيحيين، الذين يقطعون هذه الممرات.

في الحقيقة، لم يعمل هوغ سوى على إقرار حالة قائمة، إذ أن شركاءه كانوا متسلطين على سبيل جبال الألب، ولكنه أعطى تلك العملية طابعاً شرعياً، وبتعبير آخر، غطى بالختم الملكي ممارسات تدخل في حقل اللصوصية (قطع الطريق). ويجب القول أنه لأمر عادي وغير مزعج، في سياق العصر.

ويمكن القول، انه بالنسبة للملك، لم تكن الصفقة عملية رابحة إذ أنه اعتباراً من عام ٩٤٥، ظهر برانجه من جديد في إيطالية، على رأس مرتزقته، بعكس الموريين الذين حاولوا أن يجنوا اكبر فائدة ممكنة، مستثمرين مزية صفقتهم مع هوغ، تلك الصفقة التي خولتهم الحق في سلب المسافرين، فاستقروا في ممرات جبال الألب، لاسيما مون جو(*)، وراحوا يفرضون سيطرتهم، غير مبالين بأحد، لأنهم، بحسب رأيهم، يمارسون حقاً معترفاً به، نابعاً من بنود الاتفاق المعقود بينهم وبين الملك هوغ.

رعب روحاني:

يتساءل بعض الكتاب، من ذوي الاعتبار، إن لم يكن تفاوض هوغ مع المدافعين عن الفراكسينة، ناتجاً فقط من عجزه عن قهر أعدائه. فقيل هذا حصرم. . لانعتقد ان هذا التعليل يتنافى مع ما ذكرناه سابقاً، بل بالعكس، يستكمله.

(*) شعب جبلي في جبال الجورى الفرنسية، يتحكم في الطريق التي تربط فرنسة بلوزان ونوشاتل السويسريتين (م.م.)

على كلٍ، فالعجيب في الأمر، ان هذا الموقع المحصن، والمكون أصلاً من غابةٍ، اضافة الى بعض المنشئات البسيطة، ونستنتج ذلك من هندسة العصر المتواضعة وعدم اهتمام الموريين الكبير في اعمال البناء، قد تصدّى لكل هذه الهجمات، طوال هذه الفترة.

ولـم تكن المعارك التي جرت بين عامي ٩٤٢ و ٩٤٤، فريدة بنوعها. فقبل ذلك، وفي عام ٩٣١، هاجم الأسطول البيزنطي بناره اليونانية موقع الفراكسينة (غالباً ماأطلق القدماء على هذه النار اسم الأسهم النارية). وانتهت عدة محاولات أخرى، ليست بذات الأهمية، بالفشل التام، ولذلك لم يلمحوا اليها إلا بإيجاز. وحاول الامبراطور الكبير أوتون بنفسه، عن طريق الدبلوماسية، وضع حدٍ لوجود الفراكسينة، فلم يفلح، فلجأ مراراً الى القوة، وكان مصير مختلف جهوده، الفشل الذريع. وانتهى الى علمنا نص الأمر الذي اصدره الامبراطورمن كامبانية(*)، في الثامن عشر من شهر كانون الثاني، لعام ٩٦٨، لاثنين من ولاته وقواده الجرمانيين: هرمان وثيودوريك، طالباً اليهما أن يتوجها لتدمير «هذه الأمة الغادرة».. وكانت النتيجة أيضاً بدون جدوى.

فهل كان الموقع حقاً منيعاً الى تلك الدرجة؟ أم أنه حُرِّم على البشر، لتقنية خفية، لم يذكرها أحد؟

يمهر أهل البادية في استعمال الصبّاريات، عوضاً عن الأسلاك الشائكة، كعنصر حماية من المخربين، بشراً كانوا أم حيوانات.

وطبيعة الأرض المحرجّة ذاتها، في الفراكسينة، حيث تطغى الأدغال الشائكة، لتحاذي الأشجار، عنصر دفاع ممتاز، ولذلك مافتىءَ الاخباريون يهاجمون الأشواك «الطويلة والجارحة» التي تسبب جروحاً مبرحة للجنود المسيحيين، والتي تعترض سبيل تقدمهم.

(*) مقاطعة إيطالية تطل عل المتوسط في جنوب شبه الجزيرة، حاضرتها مدينة نابولي ومن مدنها: سالرنو وسورنتو وتعتبر من اغنى المناطق الزراعية الإيطالية. (م.م.)

وبعد ان تمرس الساراكنس في محيط هذه الغابة الكثيفة، أصبح من السهل عليهم أن يحبطوا أية محاولة واسعة لمحاصرة القلعة واقتحامها. فعندما يتشتت العدو مخلوباً تائهاً، يصبح من العسير عليه أن يتجمع ثانية، في اللحظة الحاسمة، ومن يفلت من الأعداء من محنة الأدغال الشائكة، يصبح تحت رحمة الجلمود المتدحرج من علٍ.

ولكن الأمر هو أخطر من ذلك، وهذا مالم يدركه المؤرخون: إذ ان هذه الغابة، وقد أشبعت بالدم المسيحي راحت توحي الى المهاجمين بالرعب الأكبر، وراح المحارب قبل أن يقترب منها يجثو ليتلو الصلاة، ولايدخلها إلا وهو مرتجف: لقد كان مغلوباً على أمره سلفاً. نعم! لايمكننا محاربة الشيطان بالسيف وحده، وكان على الأساقفة، أن يكونوا في طليعة المهاجمين، لطرد الأرواح الشريرة من المكان، وهذا مالم يفعلوه مطلقاً.

وليبرروا فشل مختلف الحملات الموجهة ضد الفراكسينة، حتى نهاية القرن العاشر، زعموا ان تلك الأحراج في غاية التعقيد، وأنه من المستحيل جرجرة الآلات الحربية حتى القلعة، وأن الغابة مقاومة كما أنها مليئة بالحيوانات الكاسرة، وأن الظلام يخيم باكراً في أرجائها، قبل أي مكانٍ آخر الخ.. ولكنهم نسوا الأمر الأساسي، ألا وهو التطيّر.

ولم تبذل الكنيسة أي جهد لتدارك الموقف، بل بالعكس، عندما ثابرت على التشهير بالمورى كمخلوق شيطاني.

ولكننا نقترب من نهاية القرن العاشر، لتدق ساعة الفراكسينة، ولايمكن مطاردة العدو من معقله إلا بشن غارة كاسحة، تتقدمها جوقة الطبّالين. وأنا أسلم بأن الكونت غليوم قد حشد كل أبواق بروفنسة وبورغونية ليدك أسوار الرعب. بهذه الطريقة فقط يمكن أن ندرك مغزى رواية اريحا(*).

(*) حول نفخ الأبواق وسقوط زسوار أريحا، أيام يشوع، انظر المدخل أعلاه (م.م.)

أسر القديس مايول:

عندما أفسح لهم المجال للاستقرار في شعاب جبال الألب، سمح الملك هوغ للموريين، لقاء تعويضهم، بفرض الأتاوات على المسافرين . .

استثمر الموريون الوضع الى حدوده القصوى وعمّموا فرض الأتاوات المختلفة على عابري السبيل، وبشكل عنيف أحياناً، الى درجة جعلت العالم المسيحي (الغربي م.م) يضج بأصوات الانتقام من الموريين. ولكن لاحراك لأحدٍ، ولاصوت لمن تنادي.

وفي أحد أيام صيف عام ٩٧٢ - وقد يكون ٢١ أو ٢٢ من شهر تموز؟ - وعلى طريق سان برنار الكبير(*) (المعروف حتى فترة قريبة بجبل جُو) مرّ شخص مسنّ، بسيط المظهر، الى درجة أنهم لم يتعرفوا عليه في بادىء الأمر، وقد اختلط مع سائر المسافرين، الذين يعدّون بالعشرات، منتهزين الفرصة ليسيروا برفقته، تشجعهم صلواته، ولم تكن هذه الشخصية سوى سان مايول، رئيس ديركلوني(**)

نعم، سان مايول، والغريب في الأمر، ان هذا الاسم الذي كان حينئذ ذائع الصيت، اكثر من اسم البابوات، أصبح نسياً منسياً. وغالب الظن، أنه « ضيف ومرشد الأباطرة والملوك ووسيط السلام بين الدول»، هكذا تصفه الحوليات المعاصرة، كان عائداً من مدينة بافي(***)، ونستنتج ذلك من أقوال مريديه وكاتبي سيرته: نلجولد وسِيرْسُ. مدينة بافي، حيث استقبله الامبراطور أوتون الأول الكبير مرة تلو الأخرى، بمراسم تليق بأعظم الأمراء، وحيث كانت الامبراطورة آدلايد، الوصية علي العرش فيما بعد، ومن مشاهير سيدات التاريخ، لاتكف عن احاطته برعايتها ومودتها.

(*) انظر الشرح الهامشي أعلاه. (م.م.)

(**) دير شهير في وسط فرنسة، جرى تأسيسه في عام ٩١٠ (م.م.)

(***) مدينة في إيطالية الشمالية (م.م.)

وكانت بافي حينئذ، وهي عاصمة مملكة إيطالية، بعد أن كانت حاضرة المملكة اللبومباردية، (*) مهوى أفئدة أهل الفكر، في أوروبة المسيحية (الغربية م. م.)، وعلاوة على ذلك، ولأجل موقعها الجغرافي، أضحت مركز الثقل لمجموعة الأديرة التي أخضعها، منذ عام ٩٣١، يوحنا الحادي عشر[١]، للسلطة الروحية والزمنية لديركلوني. ولهذه الأسباب كلها، فمن المنطقي أن يمر الأسقف مراراً من بافي. ونراه أيضاً في روما، حيث كان لكلمته ولمكانته المقام الأول، من بين مختلف الزائرين.

وباختصار، كان سان مايول من أكبر شخصيات عصره، وعلى الرغم من ذلك، كان رجلاً بسيطاً جداً، وتعوّد السفر بدون فخفخة وبدون بطانة مسلحة وبدون رفاهية. وكان دائم الانتقال من مكان لآخر.. وماكل مرة تسلم الجرة.. (**)

لقد كان الماء موجوداً وبوفرة، لأن موضع الكمين المذكور لدى أغلب الأخباريين، هو جسر أورسير على جدول الدرانس.. كان مايول في طريق عودته الى الماكونه، (***) عبر الدرب المعروف حينئذ، وهو وادي أوستا، (****) وطريقه الروماني، الذي كان في حالة جيدة آنذاك - بل كان مرصوفاً بشكل لائق - ثم يبدأ تسلق مون جو الوعر، بأصواته الألفية، (*****) ثم عمود جوبيتر بنن[٢] في القمة.. والغريب في الأمر، أننا لانجد تلميحاً في النصوص الى دير بورسان بيير الكارولنجي، وهو من

(*) نسبة الى اللومبارديين، من الأقوام الجرمانية، الذين قدموا الى ايطالية الشمالية حيث أسسوا مملكة، عاصمتها مدينة بافي، اعتباراً من عام ٥٧٥، ثم أخضعهم شارلمان. (م.م.)

(١) بابا روما (٩٣١ - ٩٣٥) (م.م.)

(**) ذكر الكاتب المثل الفرنسي التالي: TANT' VA LA CRUCHE 'A L'EAU QU 'A LA FIN ELLE SE CASSE ماكل مرة تسلم الجرة. بمعنى بذهابه وإيابه المتكرر انتهى به الأمر الى الوقوع في الأسر. (م.م.).

(***) منطقة فرنسية في الوسط شرقي الكتلة المركزية. (م.م.)

(****) بلدة ايطالية تتاخم ضواحيها فرنسة وسويسرة (م.م.)

(*****) جمع صوة وهو حجر ينصب كل ألف خطوة على الطرق الرومانية (م.م.)

(٢) جوبيتر الاله الأكبر الروماني وبنن نسبة الى جبال بنينوس، في سلسلة جبال الألب، حيث يعبد جوبيتر في قممها (م.م.)

المحطات الالزامية لرئيس الدير. ولكن يجب ان نعترف بان الواقعة، التي أشبِعَت كتابةوتعليقاً، مع الإضافات الشخصية لجمهور من الفضوليين، لم تدرج قط في ظروفها الواقعية، إن كان بالنسبة لتوقيتها أو مكانها أو أبعادها.
ولم يكن لأولئك الرواة القدماء أي إدراك جغرافي، وشاطروا معاصريهم في النفور من الجبل ووهاده وقممه المنيعة. ولم يهتموا كثيراً بتحديد موضع الواقعة بنقطةما على الخريطة. كما ونجد ذات عدم الاكتراث بالنسبة للتواريخ، وعندما نسخ بعضهم ثانية النصوص، جعلوا « جسر أورسيير على جدول دراك» مما جعلني في حيرة من أمري. (*)

وعندما يدقق المرء في الأمر، يدرك مباشرةً، إن الجسر المقصود، هو ذلك الذي يعبر الوادي السيلي بين أورسيير وسمبرانشة، في وادي باني، ومازال موقعه كما كان عليه في الماضي، فالممر الجبلي ضيق ويطابق الموقع جملة الملاحظات المذكورة في النصوص.

وماكاد المسافرون يعبرون الوادي السيلي، حتى انقض عليهم الجباة المرعبون، كرفٍ من النسور - انهم الساراكنس! ولدى سماعهم الاسم المروع، تبدد القوم شذرَ مذر. ولى اصحاب مايول هاربين، ناشدين الخلاص من العدو، باتجاه الطريق المنخفض، ولكن بدون جدوى، إذ مالبث أن أدركهم المهاجمون. وفي غضون ذلك، كان الوحيد الذي لم ينتابه الذعر وظل محافظاً على رباطة جأشه في مكانه، ضائعاً عن أنظار رهط المهاجمين، هو رئيس الدير، المستغرق في صلواته..

تقول مختلف التفاسير اللاحقة، انه كان باستطاعة مايول أن يهرب، ولكنه أبى ذلك، رافضاً أن يتخلى عن أصحابه في محنتهم. وعندما نناقش الأمر بمنطقنا الحالي، يمكننا أن نرد على هذه الأقوال، بأن هذا العجوز البالغ من العمر، ست وستين سنة، رغم نشاطه الذي يسمح له بالقيام برحلات طويلة وشاقة، قد فقد الخفة اللازمة للهروب من وجه المهاجمين.. وعلى كل، فهذه الرحمة الرائعة التي أسهبوا في مدحها، ألحقت الإفلاس بدير كلوني لقرنٍ من الزمن.

(*) لأن جدول درانس يقع في سويسرة بينما جدول دراك يقع في فرنسة على بعد حوالي ١٦٥ كم الى الغرب من الأول، وخطأ الناسخين هو الذي حيّر كاتبنا (م.م).

عاد الخاطفون، يسوقون أمامهم ضحاياهم المقيدين، وهنا فقط أبصروا مايول، جالساً على حجرٍ، مستغرقاً في قراءة كتاب صلواته فاحتجزوه واستجوبوه، فأعلن عن اسمه.

لم يذهلوا، بل ابتهجوا كل الابتهاج، لأنهم أدركوا تمام الإدراك منزلة غنيمتهم وعلموا انها فريدةً في نوعها.

فدية فاحشة:

الى أين ساقوا اسراهم؟ وهاهنا حيرة جديدة! فماهو هذا «القصر على المرتفعات»، الذي يذكره هذا الاخباري أو ذاك؟ وماأسرع استنتاج من زعم انهم قادوا مايول الى الفراكسينة ليحتجزوه في قلعة الليغوريين. ونظراً لأهمية الرهينة، فمن الضروري الحفاظ عليها في المكان الأسلم. أما بالنسبة للفدية، وهي أهم قضية تفاوض في شأنها الساراكنس مع العالم المسيحي (الغربي م.م.) فيجب عرضها على الرؤساء. ولسوء الحظ، فالتلميح الى «القصر» خادع، والفرضية متهافتة، نظراً لبعد الفراكسينة عن موقع الكمين، ومكامن الطريق اليها، والفترة القصيرة التي سُويت خلالها القضية. ياللخسارة! ويجب أن نحصر جهدنا في تفاسير سيرُس ونلْجُود ولويتبترنْد، أي بأولئك الأكثر قرباً من الحادثة، والذين يكتفون بالقول أن الساراكنس قادوا اسراهم الى مغارتهم وهي عبارة عن (عقيق سري) موجود، بحسب سياق الوقائع، في الجبال المجاورة، وهناك احتجزوا مايول في ثغرةٍ ما. وهكذا يتضح كل شيء. ويعرف رهبان المضيفة(*) المكان جيداً، والمقصود بذلك المغاور الموجودة فوق كومير. وأقوال هؤلاء البحّاثة واضحة أكيدة، فقد أُختطف رئيس ديركلوني على طريق سان برناردينو الكبير (**) وحُبِسَ في هذه المَغاور.

(*) منزل ضيوف يقيمه رجال الدين للحجاج والسافرين(م.م.)

(**) يوجد ممر سان برناردينو الكبير، وهو ممر جبلي في جبال الألب يربط بين منطقة إلفاليه السويسرية ووادي أوستا الإيطالي، على إرتفاع (٢٤٧٣ متر) اما ممر سان بردنادينو الصغير، فيربط بين وادي أوستا الإيطالي بمنطقة سافوي الفرنسية، على ارتفاع (٢١٨٨)(م.م.)

لم يعاملوه بقسوة، بل بالعكس. والمدهش في الأمر، عنايتهم به، وهذا واضح من مختلف الروايات، مع أنهم عزوها فقط للطاقات الخارقة للقديس. ولاداعي للدهشة بالنسبة للطالع الذي تركه، في نفوس المسلمين، الذين اعتبروه ولياً من أولياء الله! في أحد الأيام، أفلت من يده كتاب صلواته، (أو بالأحرى هذا الوجيز الأثير على نفسه بشكل خاص، وهو بحسب رأي نلجود، بحث البار جيروم، حول صعود العذراء؟)، فداس الكتاب سهواً أحد السجّانين، فخاصمه فوراً أصحابه وتفاقم النزاع، الى درجة أدى الى تدخل الرؤساء، وانتهت القضية بشكل سيء بالنسبة للمذنب، إذ بتروا قدمه المدنسة بالفأس، وهي خاتمة مميزة لإجلال الإسلام المطلق للكتب المقدسة، للكتب السماوية يهودية كانت أم مسيحية.

ولكن هنالك أمر آخر.

ـ هل أنت ثري؟ ماهو المبلغ الذي يمكن لديرك أن يدفعه؟ وجواباً عن هذا السؤال، قال مايول بصراحة:

ـ شخصياً، لاأملك أي شيء، ولكن ديركلوني موسر. وكالعادة، لم يكذب القديس قط، حتى على الساراكنس.

لم يكن هؤلاء الناس معتوهين. وعندما حددوا الفدية بمبلغ ألف لبرة (تعادل اللبرة ٥٠٠ غرام م.م.) من الفضة (مايعادل ١٠٨٧٩٠ فرنكاً ذهبياً)، وهو مبلغ فاحش بالنسبة لذلك العصر، فلم يتجاوزوا حدود المستطاع، وبالمقارنة، فملايين دولارات أيامنا هذه، لاتماثل الخسارة المفروضة على ديركلوني.

ولنذكر ان استرجاع مدينة باريس، في عام ٨٨٦، قد كلف شارل البدين[1]، سبعمئة لبرة مماثلة (ويجب القول انه سمح للنورمانديين، علاوة

---

(١) شارل الثالث البدين (٨٣٩ـ٨٨٨) ملك جرمانية وفرنسة (٨٨٢ـ٨٨٧) وامبراطور الغرب (٨٨١ـ٨٨٧)، حاول اعادة انشاء امبراطورية شارلمان. تغلب عليه أمراء الاقطاع والنورمانديون وخلعوه في عام ٨٨٧. (م.م.)

على ذلك، بنهب مقاطعةبورغونية(*)، كما أنه في عام ٨٦٩، دفع سكان مدينة آرل مبلغ ١٥٠ لبرة من الفضة لاستعادة اسقفها التعس. .

ولاشك في ان رهينة بهذه القيمة تستحق بعض الاعتبار. ولعب رهبان بورسان بيير دور الوسطاء، وعلى جناح السرعة.

وإذا سلمنا بما جاء في بعض النصوص، أفلح دير كلوني في التغلب على الموقف، ونجح في سعيه، إذ جمع هذا المبلغ الكبير وأوصله الى غايته، خلال شهر، بل وأقل من ذلك، (وسيحتاج دير كلوني فيما بعد لقرنٍ من الزمن ليسدد ديونه ويصلح ماليته). وقيل انه بعد اطلاق سراحه، أقام مايول في طريق عودته، وعلى الأرجح في دير سان موريس(**)، قداساً بمناسبة عيد صعود العذراء، من ٢١ تموز وحتى ١٥ آب. .(***) حقاً! انه لرقم قياسي.

أما التتمة، فهي لغز آخر، ومباشرة بعد استلامهم المال المكتسب بالحرام، انطلق السلاّبون ليلتحقوا بجبل كلال، ولكن المسيحيين اعترضوا سبيلهم وأبادوهم، وزعم بعضهم ان عددهم كان بحدود ألف نسمة. . ألف رجل من الساراكنس محتشدين في هذه الأنحاء، كل واحد منهم يطالب بلبرته الفضية، تلك اللبرة التي أفقرت دير كلوني، فكانت هذه الفدية الغاشمة. وهؤلاء المحاربون الألف، كان بانتظارهم جيش، على أهبة الاستعداد، في الضواحي. . انه لأمر بعيد الاحتمال. . وسنجد الألف لبرة تلك في الفراكسينة، بعد الاطلاع على وثائق أخرى، لها علاقة بالأعمال الانتقامية الكبرى في الشتاء التالي.

ومإن نرفع الحجاب قليلاً، حتى تنهمر علينا الأسئلة. . فأولئك الساراكنس الذين يترددون على طريق مون جو. . فلأي تاريخ يرجع

(*) مقاطعة فرنسية لعبت دوراً خطيراً في تاريخ فرنسة، حتى القرن السادس عشر، حاضرتها مدينة ديجون (انظر أعلاه)(م. م.)

(**) يقع في منطقة الفاليه السويسرية (م. م.)

(***) ففي ٢١ تموز وقع مايول في الأسر، أما في ١٥ آب فهو عيد صعود العذراء. أي مابين اسره ودفع الفدية واطلاق سراحه واقامة القداس، أقل من شهر، وهو الرقم القياسي (م. م.)

المصور رقم 6

موقع معركة القرالسينة (٩٧٢-٩٧٣)

وجودهم ؟ فمن خلال بعض التلميحات المتحفظة، يسلم تاريخنا المتعارف عليه بوجودهم في ربوعنا منذ القرن التاسع، أي الوقت الضروري للاختلاط بالسكان الأصلاء وأن يشتهروا بأسماء إيمون بل بوظون(*) . وليس صحيحاً انهم بأجمعهم قد عاشوا حياتهم العائلية في الكهوف، ويجب أن لا يغيب عن بالنا مايلي : ففي جبالنا الألبية، قضى الزحف الجليدي مابين ١٥٠٠ ، ١٨٥٠ على عدد من المسالك، كانت تسمح فيما مضى بالانتقال بحرية أكبر من وادٍ الى آخر، كما أن حدود المنطقة الحراجية وبالتالي مجال السكن كان أعلى بكثير عما هو عليه حالياً، ونجد بهذا الشأن عدة ابحاث في دورياتنا المتخصصة، إذ كان فلاحو تسرمات(**) ينتقلون الى وادي هِرِنْس مع قطعانهم، كما ان سكان إفولن يذهبون الى تسرمات لدفن موتاهم، وعبروا سفح ثِيودُل دون أن يبللوا أقدامهم، كما ان الطريق الروماني كان يمر عبر شعب هرنس (ارتفاعه ٣٤٦٢ متراً)، اضافة الى الزيارات الأحدية (الاسبوعية) في ربوع الفالتلينا(***) . انها كاذيب بأكاذيب، هكذا صاح رجال العلم منذ عشرين سنة فقط . وفجأة تم اكتشاف جذوع أعمدة في المَجْلَدَات(١) كما انهم عثروا على أخشاب محترقة مكلسة تحت الجرافات(****)، ويجدر بنا أن نطلق على هذا الطريق الجبلي اسم منتزه الساراكنس ! وبالتأكيد لم يستغرب أسلافنا وجود هولاء الوافدين بين ظهرانيهم . ويوضح الباحث المعاصر (ج . لاكام) بموضوعية فائقة فيقول : «لم يكن من السهل إلقاء القبض على هؤلاء الساراكنس، لأنهم استفادوا من تواطؤ الأهالي معهم، لحرصهم على مصالحهم الخاصة ورعياً لجانبهم كجيرانٍ مباشرين» .

(*) يفهم من كلام المؤلف ان لهذه الأسماء رنة مشرقية عربية وبالعكس أحياناً اسماء محلية اتخذها هؤلاء الذين اختلطوا بالسكان المحليين(م . م .)

(**) ناحية في الفالية السويسرية عند سفح جبل سرفن . يتم الوصول اليها بقطار جبلي ضيق السكة ولانجد في طرقاتها سوى العربات الصغيرة التي تجرّها كلاب الجبال . من مناطق التزلج على الثلج (م . م .)

(***) في ايطالية الشمالية عند سفوح جبال الألب . (م . م .)

(١) مفردها مَجْلَدَة، ركام ثلج مجلد في الجبال وفي المناطق القطبية(م . م .)

(****) جرافات : مفردها جرافة : ركام حجارة يجرفه نهر جليدي (م . م .)

لم تكن زلة بل ضلالاً:

ألحق خطف مايول وحده ضرزاً بالساراكنس أكبر من مختلف أعمال العنف التي اتهموهم بها خطأً أو صواباً، منذ حوالي ٢٥٠ سنة.

استغل بعضهم القضية الى نهايتها القصوى، لإدانة المورين بشكل عنيف ومطلق، وفي الوقت نفسه لتعظيم الوضع المسيحي (الغربي) المتجسد بمايول، الذي قُدِّس قبل موته، جاء هذا الخطف، في الوقت المناسب، ليثير ضد الخاطفين هذا التيار الجارف، الذي قضى على الفراكسينة ومهّد للحملات الصليبية.

وشاع الخبر كنثار بارود، وقامت فضيحة هائلة، وشعر كل فردٍ أن الأمر يعنيه.

ولو أن الساراكنس اختطفوا أي ملكٍ كان أو الامبراطور أوتون بذاته وبالأحرى البابا بشعبيته المتهافتة، لما أفلحوا في إيقاظ العالم المسيحي (الغربي) من سباته. أما أن يقدموا على خطف رئيس دير كلوني، فهذا أمر لايُحْتَمَل.

عندما تدفق خليط من الجيش على الفراكسينة، في مستهل شتاء عام ٩٧٢ - ٩٧٣، بذكراه المشؤومة على العالم الإسلامي، أضحى الموقف محسوماً، وللمرة الأولى تحرك الشعب، وانطلق موج بشري لايقهر من: فرسان بشككهم(*) ونبلاء مزيفين في مؤخرتهم وفلاحين ملوحين بمذارهم (مفردها مذارة)، قضاة مسلحين مع فئاتهم وأرباب الكنيسة وأتباعهم اضافة الى رهبانٍ ومحاربين ساكسون حديثي التنصر، ويقود هؤلاء جميعاً نبيلٌ زمني، ستتجاوز شهرته، لعدة قرون، منزلة اكبر قواد التاريخ، لتغيب بصورة غامضة فيما بعد: وكان يعرف باسم غليوم دوبروفنس. (انظر المصور رقم ٦).

ولم يدركنا من مشاهير الحملة المشاركين سوى اسم واحد، ولعله

(*)مفردها شكة: مجموع الات الوقاية المعدنية، كالدرع والخوذة والزرد، الخ(م.م.)

وصل الى مسامعنا بصدفة غريبة، ونعني بذلك جيبلن غريمالدي (ولم تكن أداة النسبة (*) مألوفة في القرن العاشر)، وهو أحد أصحاب غليوم الشجعان، الذي اشتهر في هذه المعركة، الى درجة ان اسمه ارتبط الى الأبد بأسماء الأماكن المفعمة بدماء الساراكنس، وعلى كلٍ فهو المغزى الذي نستنتجه من أخبار الحوليات وسجل المساحة . .

مهدت العناية الإلهية هذه المرة أرض المعركة، فدست حصان طروادة في الموقع، بواسطة الألف لبرة من الفضة، ووفقاً لرأي بوشه وعدة كتاب آخرين، أفضت فدية مايول، دون أي شك الى الفراكسينة، حيث تقاسمها الرؤساء والمغاويرمن المحاربين : بواقع لبرة واحدة لكل رجلٍ. والنتيجة المعقولة تماماً، هي ان هؤلاء الناس الحديثي النعمة، حثوا الخطى للقصف نحو قرطبة أو بالرمو أو تونس، أو نحو أماكن أخرى، ذائعة الصيت، بحيث ان حامية الفراكسينة اضحت ضعيفة، ضئيلة وبلا قيادة.

مع افتقاره الى القيادة، كان الدفاع عن الموقع بطولياً (وشوهدت نساءٌ بسراويلهن الفضفاضة يقذفن القار الملهب) . ماهي المدة التي استغرقها التغلب على مقاومة الموقع؟ بكل تأكيد عدة أسابيع، بل عدة أشهر، وكان بوسع القلعة أن تقاوم لأجلٍ طويلٍ، ومن يدري قد يكون لسنوات، لولا خيانة أحد الموريين، المدعو أيمون، الذي أدخل الى القلعة بالتعاون مع الضالعين معه، الفرسان المسيحيين بواسطة السلالم (زعم بعضهم أن مايول نصّره وعمده بنفسه، والله أعلم، إذ قال آخرون أن أيمون هذا قد سلم الموقع انتقاماً من حاكم الفراكسينة، الذي انتزع زوجته منه، وهي احدى الفاتنات البروفنسيات .)

أما جيبلن، الشريك الأكبر في تحقيق هذا النصر المشهود، فقد كافأه قائد الحملة غليوم بأن جعله سيد هذه المناطق، ومن هنا اسم غريمو، الذي يحمله الخليج والقرية معاً، والأمر الأكثر دلالةً من هذا وذاك، اسم البرج

(*) وهي حرف (ي)، فنقول غريمالد و (آل غريمالدي)، واللاحقة لاتينية الأصل ونلاحظها اليوم في الأسماء الإيطالية (م . م .)

الواقع في الداخل ومنه انطلق الهجوم الحاسم. ويكرس صك يرقى الى عام ٩٨٠ هذه الهبة، ولكن بابون يعتبره مزيفاً. وقد أخطأ من اعتبر سمو الأمير رنيه دو موناكو سليل هذا البطل، إذ يعود أصل عائلة الأمير الى مدينة جنوى الإيطالية، ولم يكن لتلك العائلة أية علاقة مع بلاد بروفنسة، قبل القرن الثالث عشر، ياللسخارة! ومع ذلك فلو كان الأمر كما ظنه بعضهم، لكانت المقارنة طريفة، لأن هذا النبيل جيبلن أو جيبالن كان معبود رعيته، واحزروا لماذا؟ كانت رعيته معفية من الضرائب (كما هو الأمر حالياً في إمارة موناكو م. م.). وبالمقابل، لم تكن الكنيسة راضية عن ذلك النبيل، لأنه رفض أن يجبي من مواطني إمارته العشر الممنوح للكنيسة بموجب الأمر الامبراطوري لعام ٧٧٩.

كانت النهاية لكل نفوذ الساراكنس في الغرب المسيحي، فبعد تدمير منشأتهم الرئيسية وإبادة ذكورها، راحت المناطق تسقط الواحدة تلو الآخرى. وغني عن البيان، ان عدة مستعمرات مدنية كانت قد اندمجت كلياً في محيطها، الى درجة انه لم يفكر أي انسان باخضاعها. ومع ذلك، باعوا بالآلاف الناجين من المذبحة في أسواق الرقيق، ولن يتبدل وضع هؤلاء العبيد الاجتماعي، قبل مضي عدة قرون (في وصية محفوظة ترقى لعام ١٢٥٠، أوصى نبيل من مدينة آفينيون بأن يباع جميع عبيده، رجالاً ونساء، لصالح الكنيسة. وفي الحقيقة، ظل تعبير «عبيد ساراكنس» يتردد حتى القرن الثامن عشر).

ونهضت من جديد المدن والأديرة المهدمة، كمدينة فرجوس ولِرِنْس وتولون وسان تروبه.. ولابد من كلمة عابرة عن مدينة هرقلية ككابارية، التي تقول الرواية الشائعة، انها بدلت اسمها، في عهد الامبراطور قسطنطين، اكراماً للقديس، الذي حطت رفاته - كما قيل - بأعجوبة في هذه البقاع في عام ٦٨. (وأنني لأتساءل إن لم تكن هذه الاسطورة وعلاوة على مغامرة القديس مايول، مصدر إلهام الكاتب الفرنسي أناتول فرانس في روايته «سان مايل في

حوضه». فمن لي ليوضّح الأمر؟). وتزخر حوليات العصر الوسيط، بالنوادر المتعلقةبرفات القديسين وبأعضاء جسمهم المصونة، وبرفاتهم المكتشفة بأعجوبةٍ وكذلك بأصول المعجزات وذلك قبل حكايات الساحرات اللاحقة، تلك كانت نوادر العصر المثيرة، بخلاف حوادث الموت العنيفة المعتبرة من الأمور التافهة. وتجمع أخبار الحوليات على القول انه لم يبق أي شيء من سان تروبه، في عام ٩٧٣ وإن إعادة اعمار المنطقة تم بفضل جهود الرهبان، الذين حشدوا حول الكنيسة، الأهالي المبعثرين، استجابة لأريحية بونس، أسقف مرسيلية. ومن المشكوك بأمره أن يكون بناء البلدة الجديد قد قام على الأسس الرومانية، كما ان سكان سان تروبه الحاليين يخطؤون كثيراً ان ظنوا انهم يقيمون على أنقاض مدينة آثنوبوليس، المذكورة في المصادر القديمة، وذلك لعدة أسباب، وأولها ان الاغريق لم يكونوا مطلقاً من بناة الموانىء، وهم الذين تعودوا على الرياح والتيارات البحرية المضطربة، فحصروا اهتمامهم بأمكنة إرساء أعدتها الطبيعة لهذا الغرض، أما مدنهم، فكانت مبينةعموماً بعيدة عن شاطىء البحر.

المفقود:

مع مكانته المرموقة في المجتمع القروسطي (الغربي)، أهمل التاريخ البطل الأعظم في عملية الاستيلاء على الفراكسينة، انها حقاً لشعوذة عجيبة، تشبه تماماً تكريس شارل مارتل نجماً حضارياً بارزاً.

عجباً! ماهذه السخرية؟

فهل هو صحيح، نعم أم لا، ان غليوم الأول، ابن بوظون الثاني وقسطنس، كونت آرل وبروفنسة، والوريث المحتمل لشقيقه بونس، فيكونت(*) مرسيلية، والأخ البكر لرُوُثْبَالد، كونت فُورْكَلْكِية، هل هو صحيح أن غليوم هذا، قد أباد، على رأس الجيش المسيحي (الغربي)،

(*) نائب كونت، مرتبة النبالة بعد الكونت مباشرة، في العصر الوسيط (م.م.)

ساراكنس الفراكسينة، في نهاية عام ٩٧٢ أو في مطلع عام ٩٧٣؟ مما جعل بابون يقول في روايته: «نادرة هي المآثر التي تستحق شكران الشعوب كتلك المأثرة».

والغريب في الأمر، ان سيرة غليوم هذا قد اختفت من قائمة شخصيات تلك الحقبة. ويمكننا، الى حد ما، تفسير هذه الفجوة بغموض شجرة الأنساب وتفاهة ذلك العصر، مما جعل بوشه يعلق على ذلك قائلاً: «نال اسم غليوم من المجدماجعله يبز اسماء القياصرة ومن كان على شاكلة الاسكندر (المقدوني م.م.)، بحيث ان كونتات اكيتانية وبواتية وتولوز وبروفنسة وفوركلكية ومرسيلية لم يوقروا اسماً اكثر من ذاك، وسعى كل واحد من هؤلاء الأمراء لانتحاله اليه، كل بدوره، مما أحدث غموضاً غريباً في تاريخ الألف الأول ذاك».

ولكن! أيجوز لنا أن نسلّم بهذه الفجوة، عندما نجد بالتأكيد سيرة هذه الشخصية في روايات كتّاب القرنين السابع عشر والثامن عشر؟ الى أية فترة يرجع هذا الانقطاع؟ ومن هي السلطة التي قررت شطب عملية الاستيلاء على الفراكسينة، من مدونة الوقائع التاريخية الجديرة بالذكر في كتبنا المدرسية؟

علماً ان الواقعة تفوق بكثير نصر بواتية المزعوم، كما أن اسم غليوم الأول البروفنسي، الحقيقي، يبز بما لايقاس اسم شارل مارتل، عند الحديث عن التوسع الإسلامي.

ولذلك يجب علينا أن نوضح كل هذه الأمور، ولو كان ذلك فقط لتعليم احفادنا بصدق اكبر، لأنهم لن يسلموا بعد الآن بالأكاذيب الشائعة.

زد على ذلك، ان محاولتنا تخبىء لنا مفاجآت أخرى، واليكم بعضها: فمثلاً، هل نجازف بالقول ان موجة الغضب التي أثارتها مغامرة مايول المحزنة في الفاليه كانت علّة الحملات الصليبية، وللمرة الأولى، ألقت المسيحية (الغربية) نفسها ملتحمة، معبأة ككتلة واحدة في الصراع، أما الكنيسة المسؤولة عن التشرذم، فمع انها أفلحت في جعل العدو مقيتاً، فلم تنجح حتى تلك الفترة، في أن تثير ضده حركة جماهيرية.. ولكن هذه المرة، قُضي

الأمر . . ويجدر بنا مراجعة وثائق مجمع كلرمن،[1] لندرك حق الإدراك ، ان مقرراته، والصرخة الشهيرة «انها إرادة الله» ، التي أطلقها البابا أوروبان الثاني [2]، لم تكن بشكل من الأشكال ، منبثقة من خطف مايول وخراب دير كلوني(وقيل أنه قبل أن يظهر في مجمع كلرمن ، ظل البابا مستغرقاً في صلواته ، لمدة طويلة، على قبر القديس مايول، في سوفينيي) .[3]

ولنتذكر هذا التاريخ : ٩٧٣ ، الذي يفوق بأهميته عام ٧٣٢ (*)، حيث جرت عملية الاستئصال الكبرى . فمنذ ذلك الوقت، حُصر السراكنس خلف جبال البرنس، تعزلهم إمارات ليون ونافار وآراغون(**)، التي ستصبح قاعدة انطلاق عملية الفتح المعاكس .

مغزى روايتنا:

سيظل هناك قطبان متضادان، وسيظل الغير بربرياً بالنسبة لي، أما السذج الذين يتعاركون في ظل هذا العلم أو ذاك، في فترة مامن التاريخ ، لا يدركون أنهم ليسوا سوى ظلال «المثل» الأصلية ، سوى ظلال الكهف (***)

هل بامكاننا أن نرجح أحد الطرفين المتجابهين في عالمناهذا ؟ نحتاج لذلك في الرجوع الى الخلف .

ولإصدار أي حكم، نحتاج لألف سنة أخرى .

---

(١) هي مدينة كلرمن فران، في وسط فرنسة، حيث عقد مجمع ديني برئاسة البابا أوربان الثاني، عام ١٠٩٥ ، لتجهيز الحملة لصليبية الأولى. (م.م.)

(٢) بابا روما من عام ١٠٨٨ العام ١٠٩٩ . اليه تنسب كلمة «انها ارادة الله» شعار الحملة الصليبية الأولى(م.م.).

(٣) مدينة في وسط فرنسة، نقلوا الى احدى كنائسها رفات القديس مايول (م.م.)

(*)عام ٩٧٣ ، حيث تم اجتياح الفراكسينة وعام ٧٣٢، معركة بواتية . (م.م.)

(**) ثلاث إمارات في شمال اسبانية ، لعبت دوراً بعد اتحادها في مقاومة عرب الأندلس، قبل إخراجهم نهائياً منها (م.م.).

(***) تجدر الإشارة هنا الى ما يقوله أفلاطون، عندما شبه وجودنا في العالم الواقعي بقوم وضعوا في كهف منذ الطفولة وأوثقوا بسلاسل ثقيلة، وأديرت وجوههم الى داخل الكهف، بحيث يعجزون عن التلفت الى الضوء. وهناك مارة يعبرون أمام الكهف، يحملون أشياء ذات أشكال مختلفة، ، تسقط عليها أشعة الشمس، فتشكل على جدار الكهف المقابل ظلالاً لها. إن الناس الموثقين لايستطيعون أن يروا إلا الظلال أو الأشباح، لا الأشياء نفسها ولا المارة ولاأشعة الشمس ولا مايجري خارج الكهف. وهكذا، فليست الأشياء الحسية سوى ظلال لـ«المثل» ، وليس بوسع الناس ان يعرفوا إلا هذه «الظلال» أما الحقيقة - ضوء الشمس والأشياء - فلا تدركها الحواس أبداً. والمعروف ان نظرية افلاطون هذه قد خضعت لدراسات نقدية، قديماً وحديثاً. (م.م.)

فهرس الموضوعات

لمحة عن حياة الكاتب ٥
هذا الكتاب ٧
تنبيه المترجم ٩
المقدمة ١١
المدخل ١٣

الفصل الأول : في أي جانب كان البرابرة ١٧

أصل التسمية ١٧
الشبح الموري ١٩
الأولاد المزعجون ٢٠
مبشرون أفذاذ ٢٢
أوزابية والأربعون راهبة ٢٤
عنف الباب المخلوع ٢٥
سوق فردن ٢٧
ترى، أهي يوطوبيا؟ ٢٨
الشارع الملكي ٣٢
البرق الخلب ٣٤
العصر الذهبي ٣٦
الأسباب ٣٩
الضريبة التمييزية ٤١
القشة والعارضة ٤٤

أولاً : اطلاق النار (الضرب) ٤٦
العيش مع العرب ٤٧
من هم هؤلاء العرب؟ ٤٨

الفصل الثاني : خرافة شارل مارتل ٥٣

البلبلة ٥٣
الجنود المرتزقة ٥٧
مصور رقم 1 ٥٨
منعطف التاريخ ٦١
الاجتياح : كرة أخرى ٦٥
الخرافة والرمز ٧٠
عجباً ! إن كان مثواه جهنم ٧٤

الفصل الثالث : الفراكسينة ٧٩

الفلك الحائر ٧٩
قلعة الليغوريين ٨٣
مصور رقم 2 ٨٤
مصور رقم 3 ٨٦
أولاء السياح الأفظاظ ٨٧
رأس جسر ٩٠
جبل كلال ٩٢
مصور رقم 4 مصوررقم 5 ٩٣
أنت على موعد مع الحظ في الفراكسينة ٩٧

مخيم ومراصد	٩٨
هذه الذرية المعلونة	١٠٠
الملك يبدل رأيه	١٠٢
رعب روحاني	١٠٤
أسر القديس مايول	١٠٧
فدية فاحشة	١١٠
المصور رقم 6	١١٣
لم تكن زلة بل ضلالاً	١١٥
المفقود	١١٨
مغزى روايتنا	١٢٠

١٩٩٥/٧/ ١ط٣٠٠٠

[illegible] في مطابع وزارة الثقافة

1995

[illegible]

180 ل س